الأيام NEW

منذ 24 عاما

تأسست عام 2000 (أسبوعية)
وتحوّلت إلى يومية عام 2005

elayemnews.dz
@elayemnews

العدد 5607 - الخميس 09 أكتوبر 2025 م الموافق لـ 17 ربيع الثاني 1447 هـ | الثمن : 20 دج | ISSN 2992-0590

سعر الصرف الرسمي للعملات الرئيسية مقابل الدينار الجزائري:
USD 130.0023 | EUR 151.1992 | GBP 174.4178

صحاري بلاند الجزائري
65.66 USD

كيف تجمع الفعاليات بين الاقتصاد والثقافة والتقنية؟..

صُنع في الجزائر

بين أروقة المعارض العالمية وأضواء الفعاليات المحلية، تتجسد صورة "جزائر التكامل" جامعةً بين الإرث الثقافي العميق والابتكارات التكنولوجية والطموح الاقتصادي المشروع. فمن الجناح الجزائري في أكسبو 2025 أوساكا اليابانية، حيث استمتع الزوار بلوحات فنية تعكس قوة التراث الوطني ووهجه، ثم المشاركة الجزائرية الأولى في صالون السياحة الدولي بإيطاليا، إلى ناباك 2025 بوهران، الذي شهد عرض حلول رقمية وطاقوية مبتكرة تعزز مسار التحول الاقتصادي المستدام، مرورا بالتحضيرات المكثفة للطبعة الـ33 من معرض الإنتاج الجزائري بالعاصمة، الذي يجمع المؤسسات العمومية والخاصة والحرفيين والشركات الناشئة على منصة واحدة لعرض منتجاتها وخدماتها...

3

الملحق الثقافي

الأمن النفسي في مواجهة الانقلاب على القيم..

أي خلاص للإنسانية؟

23-11

في عصر العولمة الثقافية والفكرية..
التربية النفسية ضرورة لضمان الحصانة الروحية؟
د. بسيم عبد العظيم عبد القادر (كاتب وأكاديمي من مصر)

التربية بالأدب في ظلال الإسلام
أ. د. صبري فوزي أبو حسين (كاتب وأكاديمي من مصر)

التربية النفسية.. هذه العبادة المنسية!
وحيد حمّود (كاتب من لبنان)

جيل منتصف التسعينيات.. الحظ واللعنة معا!
عدوية موفق الدبس (باحثة وكاتبة سورية - لبنان)

ما قيمة الحياة إن فقدت أرواحُنا قدرتَها على الحلم؟
زينب أمهز (كاتبة وباحثة من لبنان)

التربية النفسية.. أي ضرورة في حياة الفرد؟
سامر المعاني (كاتب من الأردن)

علم النفس للأدب كالملح للطعام
الدكتور عبد الوهاب برانية (الأستاذ بجامعة الأزهر - مصر)

دراسة في شخصية القائد "أتيلا الهوني"..
العامل النفسي في صعود وسقوط الأمم
بدر شحادة (باحث في الشؤون التاريخيّة والاستراتيجية من لبنان)

مطلوب وزارة للاتزان النفسي والعواطف المعتدلة!
يوسف الشمالي (كاتب من لبنان)

فقر في الفيتامينات النفسية!
سعاد عبد القادر القصير (باحثة وكاتبة من لبنان)

في عصر الجسد وافتقاد الروح..
ثرثرة القلم.. شفاء النفوس!
غنى نجيب الشفشق (كاتبة من لبنان)

التربية النفسية فريضة في عصر "الدخول إلى الخارج"!
سحر قلاوون (كاتبة من لبنان)

أكتوبر الوردي..

كيف تُترجم الجزائر التوعية الموسمية إلى استراتيجية وقائية دائمة؟

يشهدُ شهر أكتوبر من كل عام إطلاق حملات تضامنية وتوعوية واسعة للتحسيس بخطورة سرطان الثدي وأهمية الكشف المُبكر عنه، ضمن المبادرة العالمية المعروفة بـ"أكتوبر الوردي"، غير أنّ هذا الزخم الموسمي لا ينعكس بالضرورة على السلوك الصحي للنساء طوال السنة، إذ لا تزال نسب الفحص المبكر محدودة، والثقافة الوقائية ضعيفة أمام حجم التحدّي الصحي المتزايد...

سهام سعدية سوماتي 3

غـــزة.. نـار المعركة ودخان الحسابات السياسية

في غزة، لم تعد السماء تمطر صواريخ فحسب، بل دروسا قاسية في الصبر، وقوة التحمّل، وإرادة الدفاع عن الأرض ولو بالجسد الأعزل. فمنذ السابع من أكتوبر 2023، تحوّل الحصار إلى حرب إبادة مفتوحة تستهدف الوجود الفلسطيني، لتغدو المدينة الصغيرة مسرحا لصراع إرادات بين من يقاتل من أجل البقاء، ومن يسعى إلى فرض معادلة القوة والتوحش على حساب أبسط قيم العدالة وشرف المواجهة...

ربيعة خطاب 5

أمريكا الجديدة..

من إدارة الاختلاف إلى الشلل الكامل

تبدو أمريكا اليوم كآلة عملاقة توقفت تروسها عن الدوران، لا بفعل عطل تقني، بل بسبب انقسام عميق ينهش تماسكها من الداخل. فالإغلاق الحكومي الحالي – وقد دخل أسبوعه الثاني - لم يُعطّل مؤسسات الدولة فحسب، بل عطّل الفكرة ذاتها التي قامت عليها التجربة الأمريكية: إدارة الاختلاف دون أن يتحوّل إلى شلل كامل. وهكذا تجد الإمبراطورية نفسها أمام اختبار صعب لصلابتها وقدرتها على الحفاظ على تماسكها في مواجهة هشاشتها المتزايدة...

حميد سعدون 7-6

العدد 5607 - الخميس 09 أكتوبر 2025 م الموافق لـ 17 ربيع الثاني 1447 هـ
https://elayemnews.dz - @elayemnews
الأيام NEW

كيف تجمع الفعاليات بين الاقتصاد والثقافة والتقنية؟..

صُنع في الجزائر

بين أروقة المعارض العالمية وأضواء الفعاليات المحلية، تتجسد صورة «جزائري التكامل» جامعة بين الإرث الثقافي العميق والابتكارات التكنولوجية والطموح الاقتصادي المشروع. فمن الجناح الجزائري في أكسبو 2025 أوساكا اليابانية، حيث استمتع الزوار بلوحات فنية تعكس قوة التراث الوطني ووهجه، ثم المشاركة الجزائرية الأولى في صالون السياحة الدولي بإيطاليا، إلى ناباك 2025 بوهران، الذي شهد عرض حلول رقمية وطاقوية مبتكرة تعزز مسار التحول الاقتصادي المستدام، مرورا بالتحضيرات المكثفة للطبعة الـ33 من معرض الإنتاج الجزائري بالعاصمة، الذي يجمع المؤسسات العمومية والخاصة والحرفيين والشركات الناشئة على منصة واحدة لعرض منتجاتها وخدماتها. وفي هذا المشهد المتكامل، تتجسد حقيقة مفادها أن: التنمية الاقتصادية والثقافية والتكنولوجية ليست مجالات متفرقة، بل ركائز متداخلة تشكل معا هويتها الحديثة على المستويين المحلي والدولي.

حميد سعدون

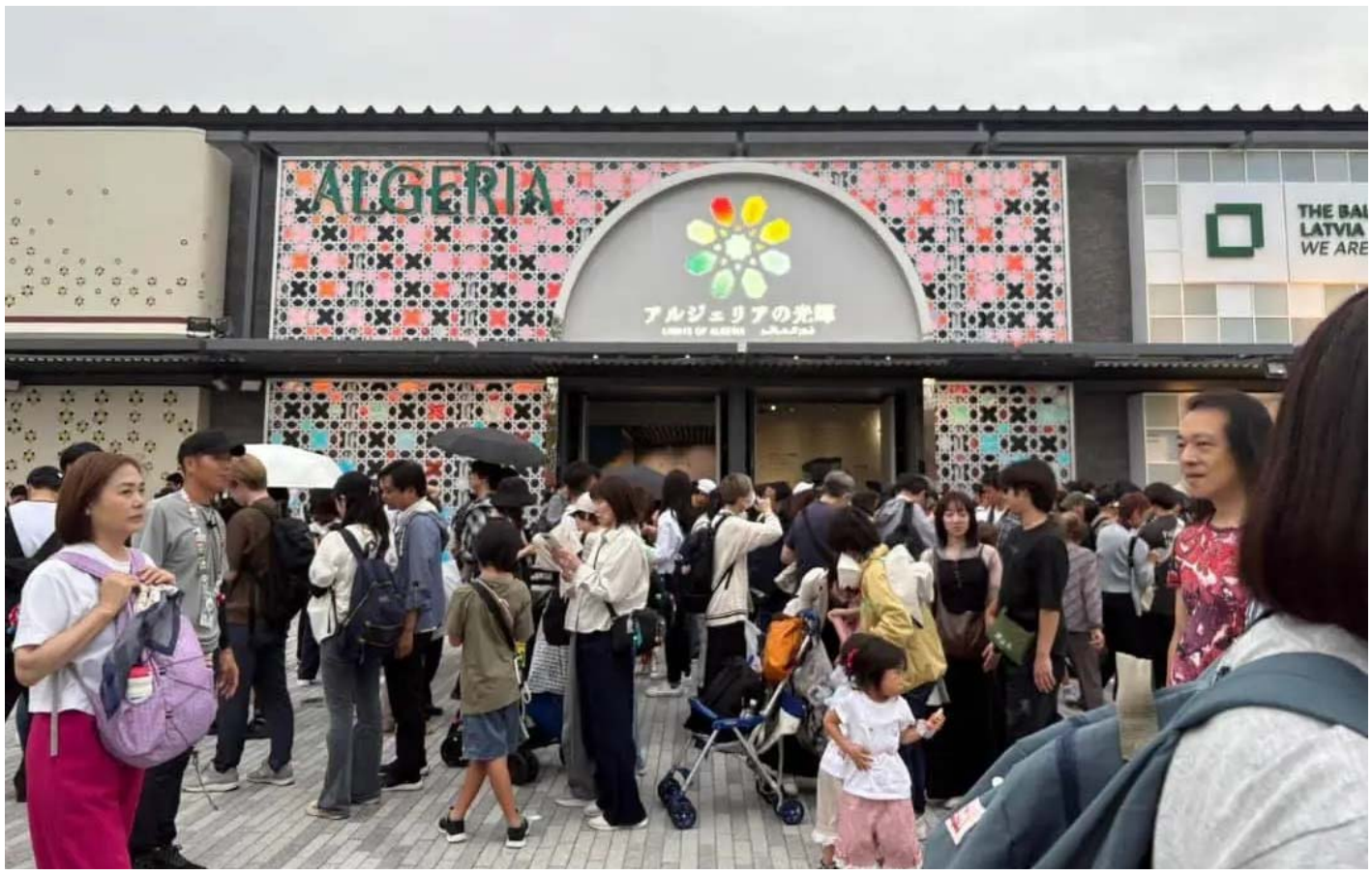

في هذا الإطار، برز الجناح الجزائري في المعرض العالمي أكسبو 2025 في أوساكا باليابان كنافذة ثقافية وسياحية مهمة، حيث أتيحت الفرصة للزوار للتعرف على تراث الجزائر الغني من خلال لوحات فنية متنوعة وعروض موسيقية ومسرحية تمثل مختلف مناطق البلاد. وشهد أسبوع الترويج لوجهة الجزائر مشاركة واسعة من الديوان الوطني للسياحة والأسفار، والوكالة الجزائرية لترقية الاستثمار، وغرفة الحرف والصناعة التقليدية لولاية الجزائر، بالإضافة إلى فرق فنية مثل فرقة «سيروكو» التي جسدت التراث القبائلي.

وقد أسهمت هذه المبادرة في تعزيز صورة الجزائر عالميا كمقصد سياحي وثقافي متنوع، مع تسليط الضوء على إمكانيات الاستثمار في القطاعات الثقافية والسياحية. واستمرت فعاليات الأسبوع من 2 إلى 8 أكتوبر، في حين سيختتم الجناح في 13 أكتوبر، ما أعطى الزوار فترة كافية للاطلاع على الغنى الثقافي والتاريخي للبلاد.

في جانب آخر من خارطة التطوير الوطني، شكلت التظاهرات الاقتصادية والمهنية جزءا لا يقل أهمية، حيث عرضت المؤسسة الوطنية للصناعات الإلكترونية لسيدي بلعباس خلال مشاركتها في ناباك 2025 بوهران، حلولا رقمية وطاقوية مبتكرة. وقد جاءت هذه المشاركة ضمن الطبعة الـ13 لمعرض ومؤتمر إفريقيا والبحر الأبيض المتوسط للطاقة والهيدروجين، الذي يعتبر من أبرز التظاهرات الاقتصادية في القارة.

وقدمت المؤسسة باقة من الخدمات والحلول التقنية، تشمل الإدماج الإلكتروني وأنظمة الطاقة الشمسية والصيانة الإلكترونية والمعايرة والتقييس، بالإضافة إلى أنظمة الأمن والحماية الذكية، ما يعكس توجه الجزائر نحو الرقمنة والتحول الطاقوي. وأكد الرئيس المدير العام للمؤسسة أن هذه المشاركة تأتي ضمن استراتيجية أوسع لدعم التحول الرقمي والطاقوي، وتعزيز الشراكات الاستراتيجية مع الفاعلين المحليين والدوليين، بما يسهم في خلق قيمة مضافة ضمن قطاع الصناعات التكنولوجية والطاقة المتجددة.

جولات افتراضية ثلاثية الأبعاد

وفي سياق الترويج السياحي، تشارك الجزائر لأول مرة في فعاليات صالون السياحة الدولي بمدينة ريميني الإيطالية، الذي يقام من 8 إلى 10 أكتوبر، بهدف التعريف بالمقومات السياحية والثقافية المتنوعة للبلاد وتعزيز فرص التعاون مع الفاعلين الدوليين، خصوصا في السوق الأوروبية. وقد خصص الديوان الوطني للسياحة جناحا مصمما بعناية ليعكس الأصالة الثقافية والتاريخية للجزائر، مع التركيز على البعد الصحراوي والثقافي كرمز مميز للهوية الوطنية.

وسيتيح الجناح للزوار فرصة القيام بجولات افتراضية ثلاثية الأبعاد لبعض الوجهات السياحية المميزة، إلى جانب عرض برامج سياحية بالتعاون مع وكالات السفر الإيطالية، وتعريف الجمهور بالمواقع الأثرية الرومانية التي تحتل الجزائر فيها المرتبة الثانية عالميا بعد إيطاليا. كما ستتمكن الوفود والزوار من الاطلاع على منتجات السياحة المتنوعة والتفاعل مع المتعاملين السياحيين الجزائريين الذين سيعقدون لقاءات عمل ثنائية مع نظرائهم الإيطاليين لتعزيز الشراكات المهنية.

ويشارك في الجناح أيضا حرفيون وفرقة موسيقية لتقديم عروض تراثية وموسيقية، كما تم برمجة لقاءات مع وسائل الإعلام الدولية لتسليط الضوء على قدرات الجزائر السياحية الغنية والمتنوعة. إضافة إلى ذلك، يشمل البرنامج ندوات تعريفية وحلقات نقاشية حول الاستثمار السياحي، وورش عمل لتبادل الخبرات المهنية، ما يعكس استراتيجية متكاملة لترقية المقصد السياحي الجزائري على المستويين الإقليمي والدولي، ويؤكد على الأهمية المتزايدة للترويج السياحي كرافد اقتصادي وثقافي رئيسي.

تجربة مباشرة للمنتجين والمستهلكين

على المستوى الوطني، يمثل معرض الإنتاج الجزائري، الذي ستقام دورته الـ33 من 18 إلى 27 ديسمبر المقبل في الجزائر العاصمة، منصة محورية لتعزيز الإنتاج المحلي والترويج له. ويجمع المعرض مؤسسات عمومية وخاصة، شركات ناشئة، مؤسسات صغيرة ومتوسطة، بالإضافة إلى الحرفيين وأصحاب الصناعات التقليدية، ما يجعله مناسبة للتفاعل المباشر بين المنتجين والمستهلكين، وإبرام الشراكات وتبادل الخبرات.

كما يسلط المعرض الضوء على الابتكار وريادة الأعمال والتكنولوجيا الحديثة، مع الحفاظ على التراث الثقافي ودعم الحرفيين لعرض منتجاتهم أمام جمهور واسع. ويمثل هذا الحدث الاقتصادي فرصة حقيقية لترسيخ ثقافة الاستهلاك المحلي وتعزيز علامة «صنع في الجزائر» كرمز للجودة والتميز.

بالجمع بين كل هذه الفعاليات، يمكن ملاحظة تلاقي أهدافها في محور أساسي واحد: الربط بين الثقافة والسياحة والاقتصاد والتكنولوجيا. فمن جهة، يعكس الجناح الجزائري في أكسبو 2025 الأبعاد الثقافية والتراثية، ثم مشاركة الجزائر بوجهها السياحي في إيطاليا، ومن جهة أخرى، تبرز مشاركات المؤسسات الصناعية في ناباك 2025 بوهران جهود الدولة في مجال الرقمنة والطاقة المستدامة، بينما يوفر معرض الإنتاج الجزائري مساحة لتجربة هذه الابتكارات على أرض الواقع، والتفاعل المباشر مع المنتجين والمستهلكين، بما يعزز الاقتصاد الوطني ويحفز روح الابتكار والاستثمار.

هذا الترابط العميق بين الثقافة والاقتصاد والتكنولوجيا يعكس رؤية شاملة وطموحة للتنمية المستدامة في الجزائر، حيث لم تعد هذه المجالات تعمل بمعزل عن بعضها البعض، بل تشكل معا ركائز أساسية لهوية البلاد الحديثة ومصدرا لإبداعها الاقتصادي والاجتماعي. كما تؤكد هذه المعارض أن الاستثمار في الثقافة والتراث ليس مجرد نشاط ثقافي فحسب، بل يمكن أن يتحول إلى محرك اقتصادي قوي يسهم في النمو وخلق فرص العمل، وأن الابتكار التكنولوجي لا يقتصر على الصناعة أو الحلول التقنية، بل يمتد ليعزز التجربة السياحية والخدماتية ويربط الإنتاج المحلي بالأسواق العالمية بطريقة مبتكرة ومستدامة.

وفي إطار هذه الفلسفة التي تقدم نموذج «جزائر التكامل»، تبدو هذه التظاهرات المتنوعة بمثابة خارطة طريق استراتيجية تهدف إلى تحقيق التوازن بين الداخل والخارج، بين الماضي والحاضر، وبين الحفاظ على التراث وتعزيز الابتكار، وبين تطوير الاقتصاد الوطني والانفتاح على الأسواق الدولية. وهي رؤية متكاملة تجعل من الفعاليات الثقافية والصناعية والتكنولوجية أدوات قوية لتطوير المجتمع، وتعزيز مكانة الجزائر إقليميا ودوليا، وإبرازها كمثال على التلاقي بين الأصالة والحداثة في عصر العولمة.

الأيام NEW
يومية وطنية إخبارية
تصدر عن مؤسسة الأيام الجزائرية للنشر والتوزيع والإنتاج التلفزيوني

المديرة العامة
نجاة مزوز

مدير النشر
عزالدين بن عطية

المقر:
تعاونية الاستقلال، رقم 58، طاهر بوشات، بئر خادم، الجزائر

الهاتف: 0549.18.41.74
هاتف/فاكس: 044.09.65.84

الموقع الإلكتروني:
https://elayemnews.dz
البريد الإلكتروني:
contact@elayemnews.dz
صفحة الفايسبوك:
@elayemnews

«من أجل إشهاركم توجهوا إلى المؤسسة الوطنية للاتصال، النشر والإشهار» وكالة **ANEP**، المتواجدة بـ 01 نهج باستور الجزائر.
الهاتف الثابت:
020.05.20.91 / 020.05.10.42
الفاكس: 020.05.13.45 / 020.05.11.48
020.05.13.77

البريد الإلكتروني:
agence.regie@anep.com.dz
programmation.regie@anep.com.dz
agence.oran@anep.com.dz
agence.annaba@anep.com.dz
agence.ouargla@anep.com.dz
agence.constantine@anep.com.dz

الطبع:
مطبعة الوسط SIA
مطبعة الشرق SIE
التوزيع:
الوسط: مؤسسة الأيام الجزائرية
الشرق: مؤسسة SODI Presse

أكـتوبـر الــوردي..

كيف تُترجم الجزائر التوعية الموسمية إلى استراتيجية وقائية دائمة؟

يشــهدُ شــهر أكتوبر من كل عام إطلاق حملات تضامنية وتوعوية واسعة للتحسـيس بخطورة سرطان الثدي وأهمية الكشــف المُبكر عنه، ضمن المبادرة العالمية المعروفة بـ»أكتوبر الوردي»، غير أنّ هذا الزخم الموسمي لا ينعكس بالضرورة على السلوك الصحي للنساء طوال السنة، إذ لا تزال نسب الفحص المبكر محدودة، والثقافة الوقائية ضعيفة أمام حجم التحدّي الصحي المتزايد.

سهام سعدية سوماتي

وبين حملات ظرفية تقتصر على التوعية والشعارات، وحاجة ملحّة إلى استراتيجية وطنية دائمة تُعزّز التربية الصحية وتُكرّس ثقافة الكشف المُبكر، يظلّ الرهان الحقيقي في الانتقال من التحسيس المؤقت إلى الوقاية المستدامة، بما يضمن تقليص مُعدلات الإصابة وحماية المرأة الجزائرية من خطر الإصابة بهذا الداء.

95 بالمائة من أورام الثدي هي أورام حميدة

وفي هذا السياق، أكد المختص في الصحة العمومية، الدكتور محمد كواش، أنّ شهر أكتوبر يُعدّ شهرًا عالميًا للتوعية بسرطان الثدي، أطلق عليه اسم «أكتوبر الوردي»، وتخصّصه منظمة الصحة العالمية سنويًا للتحسيس بأهمية الوقاية والكشف والتشخيص المبكر لهذا المرض، الذي يُعد من أكثر أنواع السرطانات انتشارًا في الجزائر والعالم.

الدكتور محمد كواش

وأوضح الدكتور كواش في حديث لـ»الأيام نيوز»، أنّ 95 بالمائة من أورام الثدي تكون في الأصل أورامًا حميدة، غير أنّ إهمال الفحص المبكر والتأخر في التشخيص والعلاج قد يؤدي إلى تحوّلها إلى أورام سرطانية خبيثة، مشيرًا إلى أنّ 85 بالمائة من الأورام التي تصيب الثدي حميدة في البداية، لكن غياب ثقافة المتابعة والفحص الذاتي يجعلها تتطور إلى حالات معقدة.

ووفقه «سرطان الثدي من السرطانات الأكثر انتشارًا في الجزائر إلى جانب سرطان القولون وسرطان البروستات، ووصفه المتحدث بالمرض «الثقيل جدًا» من حيث التكلفة الاقتصادية والنفسية والاجتماعية، لما يتطلبه من فحوصات وتحاليل دقيقة، وأشعة متخصصة، وعلاجات مكلفة كالعلاج الكيميائي والإشعاعي والجراحي، ضف إلى ذلك الانعكاسات النفسية العميقة على المريضة وأسرتها، خصوصًا إذا كانت الأم، إذ يتأثر التوازن الأسري والاجتماعي بشكل مباشر.

وأشار المتحدث إلى أن ثقافة الوقاية والتحسيس يجب أن تبدأ في سن مبكرة، أي منذ مرحلة المتوسط والثانوي والجامعة، مع ضرورة تعليم الفتيات أسس الفحص الذاتي للثدي، الذي يعتمد على مراقبة أي تغيّرات في الشكل أو اللون، أو ملاحظة إفرازات غير طبيعية، أو ظهور كتل صلبة، أو طفح جلدي تحت الإبط، مؤكدًا أن هذه العلامات تستوجب استشارة طبية فورية.

كما أوصى الدكتور كواش السيدات اللاتي لديهن تاريخ عائلي مع مرض السرطان بإجراء الفحص الطبي الدوري ابتداءً من سن العشرين في بعض الحالات، وبصفة منتظمة كل سنة بعد الثلاثين أو الأربعين، تبعًا لتوصية الطبيب المختص.

نمط حياة صحي.. هل يقي من سرطان الثدي؟

وفي السياق ذاته، شدّد على أهمية اتباع نمط حياة صحي من خلال تجنّب استخدام الحمالات الصدرية المصنوعة من معادن أو أنسجة مشبوهة، والابتعاد عن مزيلات الروائح والعطور تحت الإبط، وتفادي التعرض المباشر لأشعة الشمس على الشاطئ.

كما دعا إلى عدم الاستعمال العشوائي للأدوية والهرمونات، خاصة أدوية منع الحمل، وتشجيع الرضاعة الطبيعية لما لها من دور وقائي ضد الإصابة بسرطان الثدي.

واقترح الدكتور كواش أن تكون التربية الصحية جزءًا من المناهج التعليمية، من خلال تقديم دروس موجهة في مختلف الأطوار، خاصة في التعليم المتوسط والثانوي والجامعي، لترسيخ الوعي الصحي لدى الأجيال الصاعدة.

كما أكد على أهمية المرافقة النفسية للسيدات المصابات وأسرهن، بالنظر إلى الأثر العاطفي والاجتماعي الكبير الذي يتركه المرض.

هذا، وختم الطبيب المختص حديثه بالتأكيد على أن مكافحة سرطان الثدي تتطلب سياسة وطنية شاملة، تقوم على التوعية المستمرة، والتشخيص المبكر، والمرافقة العلاجية والنفسية، إلى جانب ترسيخ ثقافة صحية وقائية داخل المجتمع.

أكثر من 13 ألف حالة إصابة بسرطان الثدي سنويا

تُحصي الجزائر أكثر من 13 ألف حالة إصابة بسرطان الثدي سنويًا، أي ما يمثل 46 بالمائة من مجمل السرطانات لدى النساء، حسب ما كشف عنه وزير الصحة محمد صديق آيت مسعودان، خلال إشرافه رفقة وزيرة التضامن الوطني والأسرة وقضايا المرأة صورية مولوجي ووزير العمل والتشغيل والضمان الاجتماعي عبد الحق سايحي، على الانطلاق الرسمي لفعاليات شهر «أكتوبر الوردي» لمكافحة سرطان الثدي، مساء الأربعاء الماضي، بالمركز العائلي لعمال الضمان الاجتماعي ببن عكنون.

وفي هذا الصدد، أبرز وزير الصحة أنّ هذا الموعد الوطني يجسد وعياً مجتمعياً متزايداً بأهمية الوقاية والكشف المبكر، مؤكداً أن ملف مكافحة السرطان يحظى بعناية خاصة من رئيس الجمهورية عبد المجيد تبون، الذي جعله من الأولويات الصحية للدولة.

وأشار آيت مسعودان إلى أن السنوات الأخيرة شهدت قفزة نوعية في منظومة التكفل بمرض السرطان، تجسدت في إنشاء اللجنة الوطنية للوقاية من السرطان ومكافحته، وتوسيع مصالح طب الأورام والعلاج الإشعاعي عبر مختلف ولايات الوطن، إلى جانب ضمان وفرة الأدوية وتحسين آليات توزيعها.

كما تم إدماج تقنيات التشخيص والعلاج الحديثة، ما ساهم في تحقيق تقدم ملموس في التكفل بالمرضى وتوسيع فرص العلاج المبكر.

وفي ختام كلمته، شدّد الوزير على ضرورة مواصلة الجهود لتكثيف الكشف المبكر وتحسين خدمات الاستقبال والتوجيه داخل المؤسسات الصحية، مع تعميم الحملات التحسيسية لكسر حاجز الخوف والوصم الاجتماعي، مؤكداً أن النجاح في مواجهة هذا المرض يتطلب تضافر جهود كل الفاعلين، من مؤسسات الدولة والمجتمع المدني والقطاع الصحي.

يُشار إلى أن فعاليات شهر أكتوبر الوردي 2025 تنظم عبر مختلف ولايات الوطن، في إطار الحملة الوطنية للتحسيس والكشف المبكر عن سرطان الثدي، بمشاركة واسعة من المؤسسات الصحية والجمعيات والمجتمع المدني، بهدف تعزيز الوعي الصحي وتشجيع النساء على إجراء الفحوص الدورية لضمان الكشف والعلاج في مراحل مبكرة.

العدد 5607 - الخميس 09 أكتوبر 2025 م الموافق لـ 17 ربيع الثاني 1447 هـ
https://elayemnews.dz - @elayemnews
الأيام NEW

مشروبات الطاقة في الجزائر..

ظاهرة استهلاكية أم قنابل صحية موقوتة؟

في السنوات الأخيرة، تحولت مشروبات الطاقة من مجرد منتجات رياضية إلى ظاهرة اجتماعية واسعة الانتشار في أوساط الشباب والمراهقين بالجزائر، حيث باتت تستهلك بكثرة رغم ما تحمله من مخاطر صحية جسيمة في ظل التحذيرات التي أطلقتها الدراسات الطبية المتخصصة بخصوص هذه المنتجات، لكن السوق الجزائرية ما تزال تسجل ارتفاعًا في نسب استهلاكها، خصوصا داخل المحيطات التربوية، حيث يتعامل معها التلاميذ كمنتجات عادية أو مشروبات عصرية.

إيمان عبروس

وفي السياق صرّح فادي تميم، المنسق الوطني للمنظمة الجزائرية لحماية وإرشاد المستهلك ومحيطه، في حديث خص به «الأيام نيوز»، بأن هذه المشروبات «باتت تهدد سلامة جيل كامل من الأطفال والمراهقين»، مؤكدا على ضرورة منع ترويجها قرب المؤسسات التربوية. ومن جهتها، شددت الأخصائية في التغذية خديجة بن علال على أنّ هذه المنتجات «لا تقدم أي قيمة غذائية، بل هي خليط من السكريات والكافيين والمنشطات التي ترهق القلب والجهاز العصبي وتضعف المناعة».

مشروبات الطاقة.. كيف ظهرت؟

ظهرت مشروبات الطاقة في الأسواق العالمية قبل أكثر من ثلاثة عقود، وكان الهدف من تصنيعها دعم الرياضيين خلال التمارين المكثفة أو المنافسات، إذ تحتوي على الكافيين والأحماض الأمينية والسكريات لتعويض المجهود البدني. غير أن استهلاكها لم يبق محصورا على هذه الفئة، بل تجاوزها ليصل إلى الشباب والمراهقين وحتى الأطفال. وهكذا، تحولت هذه المنتجات من استعمال محدد إلى سلعة استهلاكية منتشرة في السوق دون ضوابط واضحة.

من منتج رياضي إلى ظاهرة اجتماعية

مع انتشار مشروبات الطاقة في الجزائر لم يعد مجرد استهلاك فردي عابر، بل صار ظاهرة اجتماعية بارزة في السنوات الأخيرة، خاصة لدى الفئات العمرية الأقل من 18 سنة. وفي هذا السياق، يؤكد فادي تميم «للأيام نيوز» أن «الإشكالية الكبرى تتمثل في أنّ التلاميذ أقل من 16 سنة يقبلون على استهلاكها بشكل يومي، رغم أن العلب نفسها تحمل تحذيرات صريحة تمنع استهلاكها من هذه الفئة. وبالمقابل، يلاحظ أن هذه المنتجات صارت مرتبطة بالروتين اليومي لدى المتمدرسين، الأمر الذي يعكس خطورة تحولها من منتج وظيفي إلى عادة اجتماعية مستشرية.

مخاطر مقلقة..
وتأثيرها أشد على هذه الفئة

إذا ما نظرنا إلى المكونات الأساسية لمشروبات الطاقة، نجد أنها ترتكز على ثلاثة عناصر رئيسية تتمثل في السكريات، الكافيين، والمواد المضافة. فمن جهة، تحتوي هذه المشروبات على نسب سكريات مرتفعة للغاية قد تتجاوز ما يوجد في المشروبات الغازية، مما يزيد من احتمالية الإصابة بالسمنة والسكري.

ومن جهة أخرى، تحمل نسبا عالية من الكافيين تفوق قدرة المراهقين على التحمل، فتؤدي إلى تسارع ضربات القلب وارتفاع الضغط الدموي. علاوة على ذلك، تضاف إليها مواد صناعية مثل الأسبارتام والمنكهات والمواد الحافظة، وهي مكونات تضعف جهاز المناعة وتؤثر سلبا على البكتيريا النافعة في الأمعاء. وفي هذا السياق، صرحت الأخصائية خديجة بن علال «للأيام نيوز» بقولها إن هذه المشروبات خالية من المغذيات الأساسية، فهي لا تحتوي على ألياف أو بروتينات أو معادن، بل إنها مجرد سكريات ومنبهات، قد تسبب الإدمان وتضعف الجسم على المدى الطويل.

وفي هذا الشق أشارت الدكتورة بن علال إلى أن انعكاسات استهلاك مشروبات الطاقة تظهر بشكل مباشر على صحة المستهلكين، حيث أثبتت عدة دراسات أن الإفراط فيها يؤدي إلى اضطرابات النوم، القلق، وزيادة خطر أمراض القلب والشرايين، ولفتت إلى أن ارتفاع ضغط الدم وفقدان التوازن في الجهاز العصبي يعدان من أبرز الآثار الجانبية المرتبطة بها، إضافة إلى ذلك، تتسبب هذه المنتجات في إضعاف جهاز المناعة وزيادة احتمالية الإصابة بالسكري والسمنة نتيجة محتواها العالي من السكريات. وبالمقابل، فإن تأثيراتها على المراهقين أشد خطورة، إذ تضع أجسامهم الصغيرة في مواجهة مباشرة مع نسب منبهات لا يتحملها الجهاز العضوي في طور النمو.

غياب الرقابة وضعف التطبيق

ورغم معظم عبوات مشروبات الطاقة تحمل عبارات تحذيرية واضحة تمنع استهلاكها من قبل القاصرين، إلا أن الواقع يعكس غيابا شبه تام للرقابة على بيعها. وفي هذا الصدد، أوضح فادي تميم أن التجار لا يتقيدون بالتعليمات المكتوبة، بل يبيعونها للتلاميذ دون أي التزام، حتى أن بعض المحلات تقع بمحاذاة المدارس، مما يجعل وصولها للتلاميذ أمرا في غاية السهولة. وهكذا، تظل النصوص القانونية شكلية في غياب رقابة فعلية، الأمر الذي يزيد من انتشار الظاهرة بدل الحد منها.

التجارب الدولية ودروس مستفادة

تجربة الجزائر في مواجهة مشروبات الطاقة ليست استثناءا، فقد شهدت عدة دول نقاشات واسعة حول هذه القضية، ففي بريطانيا مثلا، فُرض حظر بيعها لمن هم دون 16 سنة في بعض المتاجر الكبرى. أما النرويج فقد شددت الرقابة على التسويق وفرضت وضع تحذيرات صحية بارزة على العلب. بينما فتحت الولايات المتحدة نقاشا موسعا حول ضرورة وضع معايير وطنية موحدة لتقنين استهلاكها. ومن خلال هذه الأمثلة، يمكن القول إن الظاهرة عالمية، وأن التعامل معها يتطلب تشريعات وإجراءات عملية لا تقتصر على التحذير فقط.

ولم يقف المجتمع المدني مكتوف الأيدي أمام هذه الظاهرة، حيث شاركت المنظمة الجزائرية لحماية وإرشاد المستهلك في لقاء دولي بالقاهرة لمناقشة المعايير العالمية لحماية المستهلك. وفي هذا السياق، أوضح فادي تميم أنّ «قضية مشروبات الطاقة كانت من أبرز المحاور التي نوقشت، نظرا لخطورتها المتزايدة على الفئات الهشة مثل الأطفال والمراهقين، وكان الهدف التوصل إلى معايير موحدة وملزمة تساهم في الحد من هذه الظاهرة عالميا.

ما دور الإعلام أمام هذه الظاهرة

وإلى جانب الرقابة والقوانين، يبقى الإعلام أحد أهم الوسائل للتعامل مع الظاهرة، فالحملات الإعلامية عبر الصحافة المكتوبة، القنوات التلفزيونية، وحتى منصات التواصل الاجتماعي، يمكن أن تغير النظرة السائدة نحو مشروبات الطاقة باعتبارها مجرد «مشروبات عصرية». علاوة على ذلك، فإن الحملات التوعوية قادرة على إيصال رسالة مباشرة للشباب وأوليائهم حول المخاطر الصحية الحقيقية لهذه المنتجات، وهو ما قد يُسهم في تقليص الطلب عليها.

استراتيجية وطنية لمكافحة الظاهرة

ومن أجل مواجهة انتشار مشروبات الطاقة في الجزائر، يقترح الخبراء صياغة إستراتيجية وطنية متكاملة تقوم على عدة محاور مترابطة: أوّلها التشريع من خلال سن قوانين تمنع بيعها للقصر، وثانيها الرقابة عبر تشديد المتابعة على المحلات والمتاجر خصوصا قرب المدارس. وثالثها التربية الصحية من خلال إدماج موضوع التغذية السليمة في المناهج الدراسية. أما رابعها فيتمثل في التوعية الميدانية والإعلامية، بينما يضاف إليها محور خامس لا يقل أهمية وهو دعم البحث العلمي الوطني لتقييم الأثر الصحي لهذه المنتجات على فئات المجتمع الجزائري.

هل المنع القانوني كاف لمواجهة خطر مشروبات الطاقة؟

وقدم كل من المنسق الوطني للمنظمة الجزائرية لحماية وإرشاد المستهلك، فادي تميم، والأخصائية في التغذية خديجة بن علال، جملة من التوصيات العملية لمواجهة الانتشار المقلق لمشروبات الطاقة في الجزائر.

فمن جانبه، دعا فادي تميم إلى تطبيق صارم للقوانين التي تمنع بيع هذه المنتجات للقصر، مع إقرار غرامات مالية وإدارية على التجار المخالفين، إضافة إلى منع الإشهار والترويج لمشروبات الطاقة في الفضاءات العمومية ووسائل الإعلام، خاصة تلك الموجهة للفئات الشابة. كما شدّد على ضرورة إطلاق حملات وطنية للتوعية الصحية بالتعاون بين وزارات الصحة، التربية، والتجارة، لضمان وصول الرسائل التحسيسية إلى كل شرائح المجتمع.

أما خديجة بن علال فقد ركزت في توصياتها على الجانب الوقائي والتربوي، معتبرة أن الحل لا يكمن فقط في المنع، بل في غرس ثقافة غذائية صحيحة داخل الأسرة والمدرسة. ودعت إلى إدراج دروس حول مخاطر مشروبات الطاقة ضمن البرامج التربوية، وتنظيم ورشات توعوية لفائدة الأولياء والتلاميذ، مع تشجيع البدائل الصحية والطبيعية مثل العصائر الطازجة والمشروبات الرياضية الغنية بالفيتامينات. وأكدت أن الرهان الحقيقي هو بناء وعي جماعي يجعل من التغذية السليمة أسلوب حياة وليس مجرد سلوك ظرفي.

وبذلك، تتكامل توصيات المختصين بين الردع القانوني والوعي الصحي، في محاولة لرسم خارطة طريق وطنية تحفظ صحة الأجيال القادمة من خطر هذه القنابل الصحية الموقوتة.

كما تبقى مشروبات الطاقة ظاهرة استهلاكية مثيرة للجدل في الجزائر، تجمع بين إغراء التسويق وضعف وعي المستهلك وغياب الرقابة. وبينما ينظر إليها البعض على أنها مجرد مشروبات عصرية، يؤكد الخبراء أنها قنابل صحية موقوتة تهدد الأجيال الصاعدة. ومع تنامي الأصوات الداعية إلى التدخل العاجل، يظل السؤال المطروح: هل ستتحرك السلطات الجزائرية لإقرار معايير صارمة تحمي صحة المستهلكين قبل فوات الأوان؟

في غزة، لم تعد السماء تمطر صواريخ فحسب، بل دروسا قاسية في الصبر، وقوة التحمّل، وإرادة الدفاع عن الأرض ولو بالجسد الأعزل. فمنذ السابع من أكتوبر 2023، تحوّل الحصار إلى حرب إبادة مفتوحة تستهدف الوجود الفلسطيني، لتغدو المدينة الصغيرة مسرحا لصراع إرادات بين من يقاتل من أجل البقاء، ومن يسعى إلى فرض معادلة القوة والتوحش على حساب أبسط قيم العدالة وشرف المواجهة. ويرى الأكاديمي المصري رسلان إبراهيم أن هذه اللحظة تكشف عن تحوّل عميق في الوعي الفلسطيني، وعن مأزقٍ عربي ودولي يختبر صدقية مفاهيمٍ طال ترديدها عقودا، قبل أن تقع في امتحان غزة.

غزة.. نار المعركة ودخان الحسابات السياسية

ربيعة خطاب

تعيش غزة منذ عام 1967 تحت وطأة احتلال غاشم وحصار خانق، تحوّل بعد السابع من أكتوبر 2023 إلى حرب إبادة مفتوحة تستهدف الإنسان الفلسطيني في وجوده، قبل أن تستهدف الحجر والمكان. فالقصف اليومي العشوائي يخنق القطاع، فيما تغيب أبسط مقومات الحياة من ماء وغذاء ودواء، ليغدو المشهد الإنساني عنوانا للفاجعة المعاصرة. وفي قراءة لهذا الواقع القاتم، يرى الباحث المصري في الشؤون الأمريكية البروفيسور رسلان إبراهيم أن الحرب على غزة تجاوزت الميدان العسكري لتطال بنية المجتمع الفلسطيني ووعيه الجمعي، إذ أعادت ملحمة «طوفان الأقصى» وما تلاها من وحشية مفرطة، تشكيل إدراك الفلسطينيين لقضيتهم بوصفها معركة وجود لا تُختزل في جولة قتال. وفي المقابل، أحدث السابع من أكتوبر 2023 صدمة نفسية عميقة داخل «المجتمع الإسرائيلي» والشتات اليهودي على السواء، أعادت صياغة وعيهم السياسي ونظرتهم لمستقبل وجودهم على أرض فلسطين.

الباحث في الشؤون الأمريكية البروفيسور رسلان إبراهيم

ويؤكد البروفيسور رسلان أن تقدير حجم التحولات التي ستفرزها هذه الحرب ما زال مبكرا، غير أن المؤشرات الراهنة تكشف عن أزمة شرعية ودبلوماسية خانقة تواجهها «إسرائيل» على الساحة الدولية، بسبب حجم الدمار والضحايا المدنيين، وهو ما تعكسه موجات التضامن العالمي مع غزة. كما يطرح الباحث في حديثه لـ»الأيام نيوز» تساؤلات حول إمكانية أن يستثمر الرئيس الأمريكي دونالد ترامب وقف الحرب لتوسيع اتفاقات أبراهام نحو دول عربية جديدة، في مقدمتها السعودية، محذّرا من أن أي مسار من هذا النوع سيصطدم برفض شعبي عربي واسع بعد ما خلّفته الحرب من مآس إنسانية.

ويؤكد الباحث إن المنطقة تقف اليوم على أعتاب صراع جديد لإعادة بناء النظام الإقليمي في الشرق الأوسط، في ظل تراجع النفوذ الإيراني في سوريا ولبنان وفلسطين، الأمر الذي يجعل من نتائج الحرب على غزة عاملا مفصليا في رسم توازنات المرحلة المقبلة، ليس فقط داخل فلسطين، بل في مجمل الجغرافيا السياسية العربية.

حرب «إسرائيل» العميقة

تحتدم النقاشات حول الأبعاد الحقيقية للحرب «الإسرائيلية» على غزة، بين من يراها مواجهة عسكرية محدودة، ومن يعتبرها محاولة لإعادة صياغة المشهد الفلسطيني بأكمله. وفي هذا الإطار، يقدّم رسلان قراءة مختلفة، إذ يرى أن الهدف الأعمق لـ»إسرائيل» لا يقتصر على الردّ العسكري، بل يتمثل في عزل حركة حماس سياسيا وعسكريا ضمن مشروع استراتيجي طويل المدى يهدف إلى إعادة هندسة الواقع الفلسطيني.

ويؤكد الباحث في الشؤون الأمريكية أن أحد الأهداف الإسرائيلية المركزية في الحرب الراهنة يتمثل في إنهاء حكم حركة حماس في غزة، وإعادة رسم حدود السلطة الفلسطينية بما يتوافق مع التصور «الإسرائيلي» المدعوم من واشنطن. فالمسار الجاري – كما يوضح – لا يُختزل في عملية عسكرية محدودة، بل يشكل مشروعا سياسيا متكاملا يسعى إلى خلق بيئة جديدة في القطاع تُخضع القرار الفلسطيني لمنطق «الأمن الإسرائيلي».

ويضيف المتحدث أن حكومة بنيامين نتنياهو تدرك أن الحسم الميداني لا يعني بالضرورة القضاء على حماس كفكرة أو كتنظيم، لذلك تعمل «تل أبيب» على الجمع بين الاستنزاف العسكري والاحتواء السياسي، من خلال ضرب البنية التنظيمية للحركة ومنعها من استعادة قوتها، بالتوازي مع عزلها عن أي دعم إقليمي محتمل.

كما يرى أن نتنياهو يوظّف الحرب سياسيا لإعادة ترميم صورته في الداخل الإسرائيلي كرجل أمن قوي قادر على تحقيق ما عجزت عنه الحكومات السابقة، مستفيدا من مناخ الخوف والانقسام، ومراهنا على أن استمرار الحرب سيمنحه شرعية جديدة رغم أزماته القضائية وتهم الفساد التي تلاحقه.

ويشير البروفيسور رسلان إلى أن تحقيق هذه الأهداف يتطلب ترجمة دقيقة على أرض الواقع، وهو ما يصطدم بعقبات إنسانية وأمنية كبيرة، إذ إن حجم الدمار في غزة والضغط الدولي المتزايد يفرضان على «إسرائيل» مراجعة خطواتها الميدانية. كما يحذّر من أن نجاح نتنياهو في عزل حماس قد يمنحه دعما شعبيا مؤقتا داخل «إسرائيل»، لكنه في المقابل سيخلق فراغا سياسيا خطيرا في غزة، قد تملؤه قوى متشددة أو فوضى أمنية، وهو ما تخشاه الولايات المتحدة.

الضغوط العربية ومعادلة العدالة والسلام

وفي ظل استمرار الحرب على غزة وتباين المواقف العربية منها، تتزايد التساؤلات حول طبيعة الدور العربي وحدود تأثيره في مسار الصراع. وفي هذا السياق، أوضح البروفيسور رسلان لـ»الأيام نيوز» أن الموقف العربي يعيش ازدواجية معقّدة بين ضغط إنساني وسياسي، تعكس مأزقا عميقا في مقاربة الأزمة.

ويشير الأكاديمي المصري إلى أن العالم العربي يواجه توازنا صعبا بين الضغط على حماس لإنهاء الحرب بسبب الكارثة الإنسانية، وبين ضغط شعبي واسع يدفع الأنظمة إلى الدفاع عن الحقوق الفلسطينية. ويشرح أن هذه الازدواجية تعبّر عن صراع بين الواقعية السياسية ومتطلبات الرأي العام العربي.

ويضيف الخبير في الشؤون الأمريكية أن «الدول العربية تمارس ضغوطا غير معلنة على حماس لوقف القتال، باعتبار أن استمرار الحرب يفاقم المأساة الإنسانية في غزة ويحرج الأنظمة أمام شعوبها، لكنها في الوقت ذاته تخشى أن يؤدي سقوط الحركة إلى فراغ أمني قد تستفيد منه قوى متشددة أو يفتح الباب أمام تدخل إسرائيلي مباشر».

ويتابع أن بعض الأنظمة العربية «تتعامل مع خطة ترامب أو التصورات الأمريكية اللاحقة من زاوية المصالح الإقليمية، معتبرة أن القبول ببعض بنودها قد يجنّب المنطقة سيناريوهات أكثر خطورة، مثل التهجير الجماعي أو بناء مستوطنات جديدة في القطاع».

وفي المقابل، يوضح المتحدث أن «الشارع العربي يطالب بموقف واضح يدعم حق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم وإقامة دولتهم المستقلة»، لافتا إلى أن «الأنظمة العربية تجد صعوبة في التوفيق بين هذه المطالب والالتزامات الدولية التي ترتبط بها أمنيا واقتصاديا»، ويؤكد الباحث أن «السلام الحقيقي لا يمكن أن يتحقق في المنطقة من دون عدالة، فالعدالة هي الأساس لأي أمن مستدام، وأي تسوية لا تضمن الحقوق الفلسطينية ستبقى هشّة وعرضة للانفجار».

ويختتم الأكاديمي حديثه بالتأكيد على أن «العبرة ليست في إنهاء الحرب فحسب، بل في تحويل التوقف العسكري إلى مسار سياسي متوازن يفتح أفقا جديدا للسلام القائم على العدالة وحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني، بعيدا عن منطق القوة والهيمنة».

العدد 5607 - الخميس 09 أكتوبر 2025 م الموافق لـ 17 ربيع الثاني 1447 هـ
https://elayemnews.dz - @elayemnews
الأيام NEW

تبدو أمريكا اليوم كآلة عملاقة توقفت تروسها عن الدوران، لا بفعل عطل تقني، بل بسبب انقسام عميق ينهش تماسكها من الداخل. فالإغلاق الحكومي الحالي – وقد دخل أسبوعه الثاني - لم يُعطّل مؤسسات الدولة فحسب، بل عطّل الفكرة ذاتها التي قامت عليها التجربة الأمريكية: إدارة الاختلاف دون أن يتحوّل إلى شلل كامل. وهكذا تجد الإمبراطورية نفسها أمام اختبار صعب لصلابتها وقدرتها على الحفاظ على تماسكها في مواجهة هشاشتها المتزايدة.

أمـريكـــا الجـــديـــدة..

من إدارة الاختلاف إلى الشلل الكامل

دخل الإغلاق الحكومي في الولايات المتحدة الأمريكية، أمس الأربعاء، أسبوعه الثاني، في ظل غياب التمويل الاتحادي وتعمّق الانقسام بين الجمهوريين والديمقراطيين داخل الكونغرس، ليتحوّل من أزمة تشريعية إلى اختبار حقيقي لقدرة أكبر اقتصاد في العالم على إدارة خلافاته الداخلية دون أن يدفع ثمنها المواطن الأمريكي والعالم بأسره. فمنذ فشل تمرير مشروع قانون التمويل المؤقت في مجلس الشيوخ، استيقظت واشنطن يوم الأربعاء 1 أكتوبر على أول إغلاق حكومي منذ سبع سنوات، عطّل مؤسسات الدولة وأوقف رواتب مئات الآلاف من الموظفين الفدراليين، وهدّد بحرمان 1.3 مليون عسكري من رواتبهم إذا لم يُحسم الخلاف التشريعي قبل منتصف الشهر الجاري. ومع استمرار المواجهة الحزبية بين الجمهوريين الذين يسيطرون على الكونغرس والديمقراطيين المطالبين بتعديلات أوسع على تمويل الرعاية الصحية والبرامج الاجتماعية، تتصاعد الخسائر الاقتصادية بوتيرة مقلقة، إذ تُقدّر تكلفة الإغلاق بأكثر من 15 مليار دولار أسبوعيا، وتزداد المخاوف من أن تمتد تداعياته إلى الأسواق العالمية، مع تراجع ثقة المستثمرين وارتفاع أسعار الذهب كملاذ آمن. ورغم أن تاريخ الولايات المتحدة شهد أكثر من عشرين إغلاقا حكوميا منذ سبعينيات القرن الماضي، فإن الأزمة الحالية تبدو أعمق من سابقاتها، لكونها تتقاطع مع ظرف اقتصادي دقيق وانقسام سياسي حاد يهدد بتقويض الاستقرار المؤسسي الفيدرالي. وبينما تتبادل الأحزاب الاتهامات وتتعثر جلسات التفاوض، يبقى السؤال الأهم مطروحا أمام الرأي العام الأمريكي والعالمي: ما هو الإغلاق الحكومي تحديدا؟ ولماذا يتكرر في بلد يُعد رمزا للانضباط المالي والإداري؟

حميد سعدون

تدخل الولايات المتحدة مرحلة جديدة من الشلل الإداري والسياسي مع دخول الإغلاق الحكومي أسبوعه الثاني دون أي مؤشرات على انفراج قريب. ورغم أن هذه الظاهرة ليست غريبة على واشنطن، فإنها اليوم أكثر تعقيدا من أي وقت مضى، بسبب تشابك الخلافات الحزبية الحادة وتعدد انعكاساتها الاقتصادية والعسكرية والاجتماعية. فالأزمة الراهنة لا تتعلق بمجرد فشل تشريعي في تمرير قانون التمويل، بل تعكس أزمة حكم أعمق تتمثل في انعدام الحوار الفعّال بين الإدارة الجمهورية والكتلة الديمقراطية داخل الكونغرس، بعدما أُغلقت الأبواب أمام أي مفاوضات حقيقية.

وبينما يغرق مجلس الشيوخ في دوامة تصويتات فاشلة لإقرار خطط مؤقتة لإعادة فتح الحكومة، يعيش مجلس النواب حالة من الجمود الكامل، وسط تبادل اتهامات حاد بين الحزبين، يحمّل فيه كل طرف الآخر مسؤولية الشلل القائم. ويُفاقم من الأزمة تمسّك الطرفين بمواقفهما دون أي استعداد لتقديم تنازلات. فالجمهوريون يتهمون الديمقراطيين بابتزاز سياسي من خلال ربط تمرير الميزانية بزيادة تمويل برامج الرعاية الصحية، في حين يرى الديمقراطيون أن البيت الأبيض يستخدم الإغلاق كوسيلة ضغط لتحقيق مكاسب مالية تخدم الشركات الكبرى على حساب الطبقات المتوسطة والفقيرة.

أما الرئيس دونالد ترامب، فقد اختار أسلوب المواجهة المفتوحة، ملوّحا بإجراءات غير مسبوقة تشمل تسريحا جماعيا للموظفين الفيدراليين وتعليق صرف الرواتب المتأخرة، في محاولة واضحة لدفع الكونغرس نحو الرضوخ لخطته المالية. وقد أثارت هذه التهديدات موجة انتقادات داخلية حادة، خصوصا بعد تسريب مذكرة رسمية من البيت الأبيض تُلمّح إلى أن دفع الأجور المتأخرة «لن يتم إلا بتصريح من الكونغرس»، وهو ما اعتُبر خرقا للأعراف القانونية المتوارثة في تاريخ الإدارة الأمريكية.

تتزامن هذه التطورات مع استقطاب سياسي غير مسبوق منذ عقود، حوّل كل تصويت في الكونغرس إلى معركة رمزية تتجاوز حدود الميزانية لتصبح اختبارا للإرادة بين السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية. وبذلك، لم يعد الإغلاق مجرد خلاف مالي، بل تحوّل إلى صراع مؤسساتي على النفوذ، يسعى فيه كل طرف لإثبات من يملك القرار في توجيه الدولة وتحديد أولوياتها. والنتيجة هي شلل يهدد الاقتصاد الوطني ويؤثر على مكانة الولايات المتحدة في الداخل والخارج.

ومع دخول الاغلاق أسبوعه الثاني فقط، بدأ الإغلاق يترك بصماته بوضوح على مفاصل الحياة الأمريكية:

- شلل إداري واسع: توقّف آلاف الإدارات الفدرالية عن العمل، وأُجبر أكثر من 750 ألف موظف مدني على إجازة إجبارية دون راتب، بينما يواصل آخرون العمل دون أجر في قطاعات الأمن والصحة والمطارات.

- تأثيرات عسكرية مباشرة: أكثر من 1.3 مليون عسكري أمريكي لم يتقاضوا رواتبهم منذ بداية الشهر، رغم استمرارهم في الخدمة باعتبارهم عنصرا أساسيا للأمن القومي.

- خسائر اقتصادية هائلة: تقدر إدارة البيت الأبيض الخسائر الأسبوعية بنحو 15 مليار دولار من الناتج المحلي الإجمالي، مع تراجع الإنفاق الاستهلاكي وتزايد البطالة.

- اضطراب الأسواق: رغم أن البورصات بقيت مستقرة نسبيا، فإن الدولار ارتفع كملاذ آمن بفعل القلق العالمي من امتداد الأزمة، فيما ارتفعت أسعار الذهب والفضة بشكل ملحوظ.

- انعكاسات اجتماعية قاسية: تعطّلت برامج التغذية والتعليم والرعاية للأطفال، وتوقفت آلاف الخدمات الإدارية اليومية مثل إصدار جوازات السفر أو منح القروض الدراسية.

- تأثيرات خارجية: اهتزت الثقة العالمية في الاقتصاد الأمريكي، وبدأت أصوات في الخارج تدعو إلى تنويع الاحتياطي النقدي العالمي بعيدا عن الدولار، تحسبا لأي تدهور طويل الأمد.

الأسباب العامة وراء الإغلاق

جاء الإغلاق الحكومي نتيجة مباشرة لتقاطع أزمات سياسية واقتصادية متراكمة منذ بداية السنة المالية الجديدة في الأول من أكتوبر، حين فشل الحزبان الجمهوري والديمقراطي في التوصل إلى اتفاق بشأن قانون تمويل الحكومة الفيدرالية. وجوهر الخلاف يتمثل في اختلاف الأولويات بين الطرفين داخل الكونغرس.

فالجمهوريون يتمسكون بتمديد قصير الأمد للإنفاق بالمستويات الحالية دون أي زيادات أو التزامات جديدة، انسجاما مع توجّه الرئيس ترامب الرامي إلى تقليص حجم الحكومة وخفض النفقات العامة. أما الديمقراطيون، فيطالبون بزيادة مخصصات الرعاية الصحية والبرامج الاجتماعية، وعلى رأسها التأمين الصحي والإعفاءات الضريبية للفئات محدودة الدخل، معتبرين أن أي تخفيض في هذه البرامج يمثل مساسا مباشرا بالمواطن الأمريكي العادي وبشبكة الأمان الاجتماعي التي يعتمد عليها ملايين الأسر.

وفي ظل هذا التباين، تعطلت كل محاولات التوافق. الجمهوريون اتهموا الديمقراطيين باستغلال رفض الميزانية كورقة ابتزاز سياسي، بينما رأى الديمقراطيون أن خصومهم يستخدمون الإغلاق أداة ضغط لتحقيق أجندة اقتصادية محافظة تخدم الشركات الكبرى على حساب الفئات الهشة. وهكذا، تحوّل الخلاف حول تمويل برامج الرعاية الصحية إلى الشرارة المباشرة للأزمة، خصوصا بعد فشل مجلس الشيوخ في تمرير مشروع قانون التمويل بأغلبية الستين صوتا المطلوبة دستوريا، رغم حصوله على تأييد 55 عضوا. ومع سقوط المشروع، دخلت مؤسسات الدولة في مأزق تمويلي فعلي أدى إلى تعطيلها، لتبدأ فصول الإغلاق الذي يزداد كلفة كل يوم.

كيف حدث الإغلاق؟

يحدث الإغلاق الحكومي في الولايات المتحدة حين يفشل الكونغرس في تمرير قوانين الاعتمادات المالية السنوية أو يرفض الرئيس توقيعها قبل بدء السنة المالية الجديدة في الأول من أكتوبر. وبما أن المؤسسات الفيدرالية لا تستطيع إنفاق أي أموال دون تفويض قانوني، فإنها تُجبر على تعليق أنشطتها غير الأساسية والبقاء مغلقة إلى حين صدور قانون تمويل جديد.

في الأزمة الحالية، ورغم أن الجمهوريين يسيطرون على مجلسَي الكونغرس، فإنهم لم يتمكنوا من حشد الأصوات المطلوبة لتمرير مشروع التمويل المؤقت في مجلس الشيوخ، الذي يحتاج إلى أغلبية 60 صوتا من أصل 100. ومع تصلّب مواقف الحزبين، فشل التصويت النهائي قبل منتصف ليل الثلاثاء، ما أدى تلقائيا إلى دخول الإغلاق حيّز التنفيذ وفقا لقانون مكافحة العجز المالي الذي يمنع أي هيئة فيدرالية من العمل دون اعتماد مالي مصادق عليه.

وبموجب القانون ذاته، تُستثنى فقط المؤسسات التي تقدم خدمات أساسية، مثل الجيش والشرطة ومراقبة الطيران والمستشفيات الحكومية، بينما يُحال الموظفون غير الأساسيين إلى إجازة إجبارية غير مدفوعة الأجر، في ما يشبه تجميدا شبه كامل لنشاط الدولة. وتشير التقديرات إلى أن مئات آلاف الموظفين الفيدراليين توقفوا عن العمل، فيما تتعطل آلاف الخدمات العامة في الولايات المختلفة.

ما هو الإغلاق الحكومي؟

الإغلاق الحكومي الفيدرالي يعني توقفا جزئيا أو كليا في أنشطة المؤسسات والخدمات الحكومية غير الأساسية نتيجة غياب التمويل القانوني اللازم لاستمرارها. وهو أحد أبرز أدوات الصراع السياسي في النظام الأمريكي، حيث يستخدمه كل طرف كورقة ضغط لتحقيق أهدافه.

ويتضمن الإغلاق عادة جملة من الإجراءات المتتابعة:

- وقف الأنشطة التي لا ترتبط بالأمن القومي أو الصحة العامة أو النظام العام.

- إحالة الموظفين غير الأساسيين إلى إجازة دون راتب.

- تأجيل صرف الرواتب والمستحقات المالية لحين إقرار التمويل.

- تجميد بعض الخدمات العامة، مثل التعليم والسياحة وبرامج المساعدات الفيدرالية.

أما القطاعات الحيوية - كالدفاع، والشرطة، والرعاية الطبية العاجلة - فتواصل عملها بالحد الأدنى من الموارد لضمان استمرارية الدولة، فيما تبقى مؤسسات مثل البنك الفيدرالي وخدمة البريد خارج تأثير الإغلاق لأنها تُموّل من مواردها الخاصة.

الإغلاق الحالي يُعتبر من بين الأشد تأثيرا منذ إغلاق عام 2019، ليس فقط بسبب مدته، بل بسبب الظروف السياسية المحيطة به. فهو يكشف عمق الانقسام داخل المؤسسة السياسية الأمريكية، ويعكس حالة التآكل التي أصابت الثقة بين السلطتين التنفيذية والتشريعية. كما أنه يثير مخاوف اقتصادية حقيقية، إذ إن كل أسبوع من الإغلاق يعني خسائر بمليارات الدولارات من الناتج المحلي، فضلا عن اضطراب الأسواق المالية وتراجع ثقة المستثمرين في استقرار الاقتصاد الأمريكي.

وإضافة إلى البعد الاقتصادي، يتخذ الإغلاق الحالي بعدا رمزيا يمس صورة الولايات المتحدة كدولة مؤسسات مستقرة. فتعطّل الحكومة الفيدرالية في أقوى اقتصاد في العالم يبعث برسائل سلبية إلى الخارج، خصوصا في ظل منافسة شرسة مع قوى كبرى مثل الصين وروسيا تسعى لاستثمار أي ارتباك سياسي أمريكي لإبراز نموذجها كبديل.

إن الأزمة الراهنة تكشف حدود النظام السياسي الأمريكي في إدارة الخلافات الداخلية حين تغيب الروح التوافقية، وتُبرز كيف تحوّل العمل الحكومي إلى رهينة صراعات حزبية ومناورات انتخابية. ومع غياب أي مؤشرات على تسوية وشيكة، تبقى مؤسسات الدولة في حالة انتظار مفتوح لاتفاق سياسي يبدو أن شروطه لم تنضج بعد، بينما تتزايد الخسائر يوما بعد يوم، وتتآكل الثقة في قدرة واشنطن على تجاوز أزماتها بنفس القدر الذي طالما قدّمت به نفسها نموذجا للحكم الرشيد والاستقرار المؤسسي.

من ميزانية فورد إلى جدار ترامب.. نصف قرن من الإغلاقات

منذ أول إغلاق حكومي في الولايات المتحدة عام 1976، حين اصطدم الرئيس جيرالد فورد بالكونغرس حول ميزانية وزارة العمل، أصبحت هذه الآلية واحدة من أبرز مظاهر الانقسام في النظام السياسي الأمريكي. ففي العقود اللاحقة، تحولت الأزمات المالية بين السلطتين التنفيذية والتشريعية من خلافات حول تفاصيل الإنفاق إلى معارك هوية سياسية، تعبّر عن التوتر الدائم بين الحزبين الجمهوري والديمقراطي حول دور الدولة وحجمها، وحدود التدخل الفدرالي في الاقتصاد والمجتمع.

شهدت الثمانينيات أولى موجات الإغلاق المتكررة في عهد رونالد ريغان، حين استخدم الديمقراطيون السيطرة على مجلس النواب للحد من سياساته التقشفية. ثم جاءت التسعينيات لتُرسّخ الظاهرة بشكل أعمق، خاصة خلال أزمة 1995–1996 بين الرئيس بيل كلينتون ورئيس مجلس النواب نيوت غينغريتش، التي شلّت الحكومة لأكثر من عشرين يوما، وكلفت الاقتصاد مليارات الدولارات. كان ذلك الإغلاق بمثابة نقطة تحوّل: إذ أثبت أن تعطيل مؤسسات الدولة يمكن أن يصبح وسيلة فعالة للضغط السياسي، حتى لو أضر بالمصلحة العامة.

في الألفية الجديدة، خفّت حدة الإغلاقات مؤقتا بفضل النمو الاقتصادي والوفاق النسبي بعد أحداث 11 سبتمبر، لكنّ الانقسام عاد بقوة بعد الأزمة المالية عام 2008 وصعود حركة «حزب الشاي» داخل الحزب الجمهوري، التي جعلت من مواجهة الإنفاق الفدرالي شعارا أيديولوجيا. وفي 2013، شهدت الولايات المتحدة أحد أطول الإغلاقات بسبب معارضة الجمهوريين لبرنامج «أوباماكير»، ما كشف عمق الشرخ بين رؤية تؤمن بدولة الرعاية وأخرى ترفضها باعتبارها عبئا على دافعي الضرائب.

ثم جاء الإغلاق الأطول في تاريخ البلاد بين 2018 و2019 خلال رئاسة دونالد ترامب، واستمر 35 يوما، بعدما رفض الكونغرس تمويل الجدار الحدودي مع المكسيك. لم يكن ذلك الخلاف ماليا بقدر ما كان رمزا لصدام سياسي وثقافي حول الهجرة والهوية، ما جعل الإغلاق أداة لتغذية الاستقطاب الشعبي بدل أن يكون وسيلة تفاوض. ومنذ تلك اللحظة، لم يعد الإغلاق مجرّد عرض لأزمة مالية، بل مؤشّرا على عطب هيكلي في النظام السياسي الأمريكي، حيث لم تعد المؤسسات قادرة على بناء توافقات أساسية حول الميزانية والإنفاق العام.

الإغلاق الراهن عام 2025 يأتي في هذا السياق المتراكم، معبّرا عن انسداد سياسي أكثر مما هو خلاف تقني. فالانقسام لم يعد بين الحزبين فقط، بل داخل الحزب الجمهوري نفسه، بين جناح براغماتي وآخر متشدّد يرفض أي تسوية مع الديمقراطيين، ما يجعل تمرير الميزانية مهمة شبه مستحيلة. وقد تسربت مفاعيل الأزمة سريعا إلى عمق الحياة اليومية، فتحولت من أزمة إدارية في واشنطن إلى ارتجاج شامل في البنية الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، تاركة بصمات واضحة على تماسك الدولة وصورتها الدولية. وكل يوم إضافي من دون اتفاق سياسي يوسّع الفجوة بين مؤسسات الحكم ويضاعف الأضرار المباشرة وغير المباشرة التي تصيب الاقتصاد والمجتمع معا، في مشهد يبرز هشاشة التوازن بين السلطتين التشريعية والتنفيذية.

شلل إداري وجيش بلا رواتب

أول مظاهر التأثير ظهرت في القطاع الإداري الفدرالي الذي أصيب بشلل واسع، بعدما أُجبرت آلاف الإدارات على تعليق أعمالها نتيجة غياب التمويل القانوني اللازم لاستمرارها. أكثر من 750 ألف موظف مدني أُحيلوا إلى إجازات إجبارية دون أجر، فيما يواصل عشرات الآلاف العمل من دون مقابل مؤقتا في قطاعات الأمن والنقل والصحة، التزاما بقرارات «الخدمة الأساسية» التي تُستثنى عادة من الإغلاق. هذا التعطيل لا يقتصر على المكاتب الحكومية المركزية في واشنطن، بل يمتد إلى الوكالات الإقليمية والبلديات التي تعتمد على التمويل الفيدرالي لتسيير خدماتها اليومية، مثل إصدار جوازات السفر وتجديد رخص القيادة ومنح القروض التعليمية. ومع استمرار الإغلاق، تزداد طوابير الانتظار وتتراكم الملفات، ما يعني شللا بيروقراطيا يضعف ثقة المواطنين في مؤسسات دولتهم.

تداعيات الإغلاق تمتد إلى القطاع العسكري الذي يُعد أكثر حساسية، إذ لم يتقاضَ نحو 1.3 مليون جندي وضابط رواتبهم منذ بداية الشهر، رغم استمرارهم في الخدمة. وقد بدأت أصوات في الكونغرس تحذر من أن الإغلاق قد ينعكس على الجاهزية القتالية للقوات المسلحة في حال استمر لفترة طويلة، خصوصا مع تأخر صيانة المعدات ووقف عقود الإمداد اللوجستي.

وتكشف تقارير وزارة الدفاع أن بعض البرامج التدريبية أُلغيت بالفعل، وأن عمليات الصيانة الدورية للسفن والطائرات تأجلت نتيجة تجميد النفقات التشغيلية. ورغم أن وزارة الدفاع تستفيد من بعض الصلاحيات الاستثنائية لمواصلة مهامها الأساسية، فإن تآكل الروح المعنوية داخل صفوف العسكريين بفعل تأخر الأجور يُعد مؤشرا مقلقا على المدى البعيد، لاسيما في ظل وجود قوات أمريكية منتشرة في أكثر من 70 دولة.

على المستوى الاقتصادي العام، تشير التقديرات الأولية إلى خسائر أسبوعية تتجاوز 15 مليار دولار من الناتج المحلي الإجمالي، وهي أرقام كفيلة بتقليص معدل النمو السنوي بمقدار 0.2 إلى 0.3 نقطة مئوية إذا استمر الإغلاق حتى نهاية الشهر. هذه الخسائر لا تعود فقط إلى توقف الإنفاق الحكومي المباشر، بل تشمل أيضا تأثيرات ثانوية على سلاسل التوريد، وشركات المقاولات التي تعتمد على العقود الفيدرالية، والمؤسسات الصغيرة التي تقدم خدماتها للدوائر الحكومية. ومع غياب الأجور عن مئات الآلاف من الموظفين، ينخفض الاستهلاك المحلي وهو المحرك الأساسي للاقتصاد الأمريكي، ما ينعكس تباطؤا في الطلب الكلي وركودا في مبيعات التجزئة والإسكان.

ورغم أن الأسواق المالية أظهرت في البداية قدرا من الصمود النسبي، فإن مؤشرات التوتر بدأت تظهر تدريجيا. الدولار الأمريكي ارتفع بفعل توجه المستثمرين نحوه كملاذ آمن في فترات عدم اليقين، لكن هذا الارتفاع لم يُترجم ثقة فعلية في الاقتصاد، بل يعكس خوف الأسواق العالمية من امتداد الأزمة إلى النظام المالي الدولي. بالمقابل، شهدت أسعار الذهب والفضة ارتفاعا ملحوظا مع تزايد الإقبال على الأصول الملموسة، فيما بدأ بعض صناديق التحوط بتحويل استثماراتها إلى السندات الأوروبية والآسيوية الأكثر استقرارا. وإذا طال الإغلاق، فإن مؤسسات التصنيف الائتماني قد تعيد النظر في تقييم ديون الخزانة الأمريكية، وهو سيناريو سبق أن حدث عام 2011 حين خفّضت وكالة «ستاندرد أند بورز» التصنيف الائتماني للولايات المتحدة لأول مرة في تاريخها، ما تسبب بهزة ثقة عالمية.

أما القطاع الاجتماعي، فهو الأكثر هشاشة في مواجهة تداعيات الإغلاق. آلاف العائلات منخفضة الدخل فقدت مؤقتا إمكانية الحصول على المساعدات الغذائية الشهرية بسبب تعليق برامج التغذية الفيدرالية. كذلك توقفت بعض برامج الرعاية للأطفال والتعليم المبكر مثل «Head Start» في عدد من الولايات، ما أجبر مئات العائلات على ترك أعمالها لرعاية أطفالها في المنازل. كما تراجعت قدرة المستشفيات الحكومية على تغطية نفقاتها التشغيلية، مما أثر على جودة الخدمات المقدمة للفئات غير المؤمنة صحيا. وتكشف تقارير منظمات المجتمع المدني أن الإغلاق يفاقم التفاوت الاجتماعي ويضرب بشدة الفئات الأكثر هشاشة، خصوصا في المناطق الريفية التي تعتمد على الدعم الفيدرالي في الغذاء والتعليم والصحة.

وتتجاوز تداعيات الأزمة حدود الداخل لتصل إلى المجال الخارجي. فغياب التمويل الحكومي يعني تجميد العديد من الأنشطة الدبلوماسية، وتأجيل سفر وفود رسمية إلى الخارج، ووقف المساعدات التنموية لبعض الدول الحليفة. وقد بدأت بعض السفارات الأمريكية في الخارج بتقليص طاقمها الإداري إلى الحد الأدنى، وتأجيل منح التأشيرات في حالات غير عاجلة، ما أثّر على حركة السفر والدراسة إلى الولايات المتحدة. الأهم من ذلك أن الثقة العالمية في كفاءة النظام الأمريكي بدأت تتآكل، إذ لا يُعقل في نظر كثير من المراقبين أن تتعطل حكومة الدولة الأولى في العالم بسبب خلافات حزبية داخلية. ووفق استطلاعات حديثة، فإن أكثر من نصف المستثمرين الدوليين باتوا يرون أن الاضطرابات السياسية الأمريكية أصبحت عاملا مقلقا للاستقرار المالي العالمي، مما دفع بعض البنوك المركزية إلى إعادة النظر في نسب احتياطاتها المقومة بالدولار.

واشنطن مرتبكة وخصومها متأهبون.. حين تهتز الهيمنة من الداخل

على الصعيد النفسي والمعنوي داخل المجتمع الأمريكي، يخلق الإغلاق شعورا عاما بالارتباك والإحباط. فالموظفون يعيشون قلقا يوميا بشأن قدرتهم على تسديد الإيجارات والفواتير، والقطاع الخاص يشعر بعدوى التوتر بسبب تراجع الطلب الحكومي، بينما المواطن العادي يرى في تكرار الأزمات دليلا على تراجع قدرة النظام السياسي على إدارة شؤونه بكفاءة. وتؤكد استطلاعات الرأي أن ثقة الأمريكيين في الكونغرس هبطت إلى أدنى مستوياتها منذ عقدين، في حين يشهد الرأي العام انقساما حادا بين من يحمّل الجمهوريين المسؤولية ومن يوجه اللوم إلى الديمقراطيين. هذه الحالة من الانقسام الاجتماعي لا تقل خطورة عن الخسائر المادية، لأنها تعمّق الشعور بفقدان البوصلة الوطنية، وتضعف التماسك الذي تحتاجه البلاد في مواجهة تحدياتها الخارجية.

ومن الزاوية التقنية والمؤسساتية، فإن استمرار الإغلاق يعرقل عمل قطاعات تعتمد على التحديث المستمر للبيانات مثل مكتب الإحصاء ووزارة العمل ووكالة البيئة، مما يعني غياب المؤشرات الاقتصادية الدقيقة التي يستند إليها صانعو القرار والمستثمرون. كما أدى تجميد ميزانيات البحث العلمي إلى تعطيل مئات المشاريع في الجامعات والمختبرات الوطنية، بعضها مرتبط بتقنيات حيوية كالذكاء الاصطناعي والطاقة النظيفة، ما قد يبطئ وتيرة الابتكار الأمريكي في مواجهة المنافسين الدوليين. ومع توقف المراجعات الدورية للمشاريع الكبرى في البنى التحتية، تتراكم أيضا مخاطر الإهمال والصيانة المؤجلة في الطرق والجسور والمطارات، ما يفاقم الفاتورة المستقبلية لأي خطة إنعاش.

على المستوى السياسي الداخلي، الإغلاق الحالي يعمّق الشرخ بين السلطتين التنفيذية والتشريعية، ويعيد طرح سؤال جوهري حول فعالية النظام الأمريكي القائم على الضوابط والتوازنات. فالصراع لم يعد يدور حول بنود مالية فحسب، بل تحوّل إلى معركة رمزية على من يملك الكلمة الأخيرة في توجيه الدولة. وتُظهر مجريات الأحداث أن كل طرف يستخدم الإغلاق سلاحا انتخابيا. الجمهوريون يسعون لإظهار الديمقراطيين بمظهر المعرقلين لمصالح المواطنين، فيما يحاول الديمقراطيون تحميل البيت الأبيض مسؤولية الابتزاز المالي لخدمة الشركات الكبرى. ومع اقتراب موسم الانتخابات النصفية، يتحول الإغلاق إلى أداة لاستثارة الناخبين، مما يجعل احتمالات التسوية أقل في المدى القريب.

وفي موازاة هذه الانعكاسات، بدأت الولايات الأمريكية نفسها تشعر بالضغط، إذ تعتمد كثير من ميزانياتها المحلية على التحويلات الفيدرالية. فتعطلها يؤدي إلى نقص حاد في تمويل المدارس والمستشفيات والبرامج الاجتماعية المحلية. وقد أُجبرت بعض الولايات على استخدام احتياطاتها المالية لتغطية نفقات عاجلة، فيما حذرت أخرى من احتمال وقف خدمات النقل العام أو إغلاق بعض المراكز الحكومية إذا استمر الوضع على حاله. هذه الديناميكية تهدد بخلق توترات جديدة بين الحكومة الفيدرالية والولايات، وقد تفتح نقاشا دستوريا حول حدود صلاحيات واشنطن في حال تكرار الأزمات المالية.

كما لا يمكن تجاهل البعد الجيوسياسي للأزمة. فخصوم الولايات المتحدة مثل الصين وروسيا وإيران يستثمرون سياسيا في مشاهد الإغلاق، معتبرين إياها دليلا على ضعف النموذج الليبرالي الغربي، ويستغلونها في خطابهم الخارجي لتقويض الثقة العالمية في القيادة الأمريكية. وتتابع العواصم الأوروبية الوضع بقلق بالغ، خشية أن تمتد آثار الشلل الإداري إلى ملفات التعاون الدفاعي والاقتصادي ضمن حلف الناتو ومجموعة السبع. ومع كل يوم جديد من الإغلاق، يتعزز الانطباع بأن واشنطن منشغلة بصراعاتها الداخلية أكثر من اهتمامها بإدارة التوازنات الدولية، وهو ما قد يشجع قوى إقليمية على اختبار حدود النفوذ الأمريكي في مناطق حساسة مثل بحر الصين الجنوبي والشرق الأوسط.

وفي سياق العلاقات الاقتصادية الدولية، يتخوف الشركاء التجاريون من تأخر المصادقات على العقود والمعاهدات التجارية، وتأجيل المفاوضات حول الاتفاقيات الجمركية. كما بدأت بعض الشركات المتعددة الجنسيات العاملة في الولايات المتحدة بتعليق توسعاتها الاستثمارية مؤقتا إلى حين اتضاح الرؤية. وإذا طال أمد الأزمة، فإن تدفق الاستثمارات الأجنبية المباشرة قد يتراجع بنسبة تتراوح بين 8 و10 في المئة خلال الربع القادم، وفق تقديرات مراكز دراسات اقتصادية أمريكية، وهو ما يمثل ضربة إضافية لسوق العمل المحلية.

في ضوء هذه الصورة، تتبلور أمام الولايات المتحدة ثلاثة سيناريوهات محتملة: تسوية مؤقتة تُعيد فتح الحكومة جزئيا دون حلّ الخلافات الجوهرية، أو رضوخ أحد الطرفين تحت الضغط الاقتصادي والشعبي بما يفرض اتفاقا سريعا، أو استمرار الإغلاق بما يشبه شللا دستوريا جزئيا يعمّق أزمة الثقة في النظام السياسي. وفي كل الحالات، تبدو أزمة الإغلاق الراهنة علامة أخرى على أن المشكلة لم تعد في الأرقام أو الميزانيات، بل في السياسة نفسها التي فقدت قدرتها على إنتاج الحلول.

أقرب ما يكون إليك..

https://elayemnews.dz

الأيام NEW

السويد.. «الإسلام الأزرق والأصفر» في مواجهة «الإسلام السياسي»

راضية زبانة

الجدل يتزايد في أوروبا حول تأثير الجماعات الإسلامية على مجتمعاتها، لكن الشرارة الأخيرة جاءت من ستوكهولم، حيث أطلقت وزيرة التعليم والاندماج السويدية، سيمونا موهامسون، تصريحات وصفت بالجريئة، اتهمت فيها جماعة الإخوان المسلمين بمحاولة التأثير في المجتمع السويدي وعرقلة اندماج المسلمين. الوزيرة شددت على أن الحكومة ستتحرك لرصد أي نشاطات أو اختراقات محتملة داخل المؤسسات الاجتماعية والسياسية، في خطوة تعكس تحولا لافتا في الخطاب الرسمي حول قضايا الهوية والاندماج.

يؤكد الباحث التونسي جمال مارس أن تصريحات وزيرة التعليم والاندماج السويدية تعكس إدراكا متزايدا لدى الحكومات الأوروبية لضرورة التمييز بين الممارسة الدينية المشروعة وبين النشاط الأيديولوجي المنظم، الذي تسعى من خلاله بعض الجماعات إلى التأثير في البنية المجتمعية والسياسية.

وأوضح أن ما أشارت إليه الوزيرة بشأن «اختراق المؤسسات» ليس اتهاما عشوائيا، بل نتيجة لتقارير ودراسات أوروبية رصدت بالفعل محاولات ممنهجة من جماعة الإخوان المسلمين لبناء شبكات نفوذ داخل مؤسسات المجتمع المدني والتعليم.

دوافع التحقيق السويدي ومفهوم «الإسلام الأزرق والأصفر»

يشهد المشهد السياسي في السويد تحولا لافتا في التعامل مع قضايا الاندماج والدين بعد إعلان الحكومة فتح تحقيق رسمي حول نشاط جماعة الإخوان المسلمين داخل البلاد. هذا القرار أثار نقاشا واسعا حول طبيعة العلاقة بين الدولة والجاليات المسلمة، وحول مدى تأثر السويد بالموجة الأوروبية الجديدة التي تربط بين الإسلام السياسي ومخاطر الاختراق المؤسسي.

الدكتور جمال مارس _تونس

يؤكد جمال مارس للأيام نيوز، أن الخطوة السويدية لم تأت من فراغ، بل جاءت نتيجة تراكم مؤشرات مقلقة رصدتها الحكومة خلال السنوات الأخيرة، خصوصا بعد صدور التقرير الفرنسي الذي تحدث عن اختراق الجماعات الإسلامية للمؤسسات الأوروبية. ويشير إلى أن السويد كانت من الدول التي ورد ذكرها كبيئة خصبة لأنشطة جماعة الإخوان.

ويضيف أن الحكومة تسعى من خلال هذا التحقيق إلى تقييم مدى وجود شبكات فكرية أو تنظيمية تعمل وفق أجندة أيديولوجية داخل المؤسسات التعليمية والاجتماعية، خاصة تلك التي تتلقى تمويلا حكوميا.

ويرى مارس أن المسألة لا تتعلق بخطر أمني مباشر، بل بخطر هيكلي طويل الأمد مرتبط بما يسميه «الهياكل الموازية»، أي مؤسسات تعمل داخل المجتمع السويدي لكنها تحمل فكرا يتعارض مع قيم الدولة العلمانية والديمقراطية.

أما بخصوص ما سمته وزيرة التعليم والاندماج سيمونا موهامسون بـ»الإسلام الأزرق والأصفر»، فيوضح مارس أن المقصود هو أنموذج لإسلام مندمج في المجتمع السويدي ويحترم قيم الحرية والمساواة، في مقابل الإسلام السياسي الذي يُنظر إليه كحركة أيديولوجية تسعى إلى النفوذ باسم الدين.

ويعتبر أن هذا المفهوم يحمل في الوقت ذاته بعدا إيجابيا يسعى لترسيخ إسلام متوافق مع القيم الوطنية، لكنه أيضا يطرح إشكالية عندما تبدأ الدولة في تحديد ما هو «الإسلام المقبول» وما هو «المرفوض»، لأن ذلك قد يثير حساسيات داخل الجالية المسلمة المتنوعة فكريا واجتماعيا.

الأبعاد الأوروبية والتحول في رؤية التعددية الثقافية

لا يمكن فصل التحقيق السويدي عن التحولات الأوسع التي تشهدها أوروبا في التعامل مع الإسلام السياسي. فالتقارير الرسمية في ألمانيا والنمسا دفعت بعدة دول إلى مراجعة سياسات الاندماج ومراقبة تمويل الجمعيات الدينية، وهو ما يعكس توجها أوروبيا جديدا يسعى إلى تحقيق توازن بين حماية الأمن واحترام الحريات.

يؤكد جمال مارس أن التحقيق السويدي يأتي استجابة مباشرة للتقرير الفرنسي الصادر عام 2023، الذي كشف عن شبكات نفوذ مرتبطة بالإخوان داخل المؤسسات العامة. ويضيف أن السويد تابعت تلك التطورات بقلق، مما دفعها إلى إطلاق تحقيق وطني لتقييم الوضع محليا.

ويشير إلى أن هذا التحرك لا يعبر فقط عن تقليد بل يعكس أيضا تغيرا في المزاج السياسي الداخلي بالسويد، الذي بات أكثر حذرا تجاه قضايا الهجرة والاندماج بعد تصاعد التوترات الاجتماعية.

ويضيف أن هذا التوجه يمثل جزءا من تنسيق أوروبي أوسع ضد ما يسمى بالإسلام السياسي، إذ تتجه الدول الأوروبية نحو تبادل المعلومات وتوحيد التشريعات لمراقبة الجمعيات والتمويلات المشبوهة.

أما عن البعد الثقافي، فيوضح مارس أن الخطاب الرسمي الجديد في السويد يعكس تحولا في مفهوم التعددية الثقافية، إذ لم تعد الدولة تكتفي بسياسة «التعايش بين الثقافات»، بل باتت تؤكد على «الاندماج القيمي» في إطار الهوية السويدية الجامعة.

ويخلص الباحث إلى أن السويد تعيد اليوم تعريف التعددية لا باعتبارها coexistence بين ثقافات مختلفة، بل كمنظومة قيم مشتركة تضمن حرية المعتقد مع احترام المبادئ الديمقراطية، وهو تحول يعكس قلقا متزايدا من العزلة الثقافية، لكنه في الوقت ذاته يثير تحديات جديدة أمام الحفاظ على التنوع الحقيقي داخل المجتمع.

بورتسودان في السودان.. رسائل السياسة وحسابات النفط

سلمى عماري

تعيش الساحة السودانية تحولات ميدانية متسارعة ترجّح كفة القوات المسلحة بعد سلسلة من الانتكاسات القاسية التي منيت بها مليشيات الدعم السريع في مناطق عدة، ما أعاد تشكيل موازين القوة داخل البلاد وفرض واقعًا جديدًا على الأطراف الإقليمية، وفي مقدمتها جنوب السودان، التي تجد نفسها أمام ضرورة إعادة حساباتها السياسية والعسكرية في ظل المتغيرات المتلاحقة.

وفي هذا السياق، يؤكد المحلل الإعلامي السوداني يس عمر حسن عمر أن جوبا تتابع بقلق الانهيارات المتتالية التي طالت قوات الدعم السريع، خاصة في جبل موية، المنطقة ذات الأهمية الاستراتيجية التي تربط ولايات الجزيرة والنيل الأبيض وسنار والقضارف والنيل الأزرق. كما أشار إلى أن المليشيا تكبدت خسائر كبيرة في مدينة ود مدني، ما اضطر قائدها محمد حمدان دقلو (حميدتي) إلى إطلاق تصريحات واهية لمواساة فلول قواته المنهارة في إقليم الوسط.

لمحلل الإعلامي السوداني يس عمر حسن عمر

وأضاف المتحدث يس عمر حسن عمر أن الانهيارات لم تتوقف عند هذا الحد، إذ طُردت المليشيا من تخوم ولاية نهر النيل ومصفاة الجيلي التي كانت تتخذها قاعدة عسكرية مكتملة، قبل أن تُمنى بهزيمة أخرى في منطقة الصالحة جنوب الخرطوم رغم امتلاكها أكثر من 700 مركبة قتالية، إلى جانب معارك الخوي وبارا في إقليم كردفان التي كشفت حجم الضعف الميداني في صفوف التمرد.

هذه التطورات العسكرية دفعت جوبا إلى مراجعة حساباتها، خصوصًا مع تزايد كلفة الارتباط بالدعم السريع وتراجع جدواه، مقابل الحاجة الملحة للحفاظ على استقرارها الداخلي ومصالحها الاقتصادية في ملف النفط والتجارة الحدودية. ويؤكد أن «بضاعة الدعم السريع باتت مزجاة وضررها أكثر من نفعها، ما يستوجب على جنوب السودان الخروج من حالة الحياد الزائف وإعادة تموضعها الإقليمي بعقلانية واقعية».

زيارة بورتسودان.. بين رسائل الدبلوماسية وحسابات النفط

تأتي زيارة وزير خارجية جنوب السودان إلى بورتسودان في توقيت بالغ الحساسية، حيث تحاول جوبا ترميم علاقتها مع الخرطوم بعد شهور من الارتباك السياسي والغموض في مواقفها من الحرب الدائرة. الزيارة حملت رسالة خطية من الرئيس سلفاكير ميارديت إلى رئيس مجلس السيادة الفريق أول عبد الفتاح البرهان، تتحدث عن «تعزيز العلاقات» والتعاون المشترك، غير أن خلفياتها تتجاوز المجاملات الدبلوماسية إلى حسابات اقتصادية وأمنية دقيقة.

ويشير المحلل الإعلامي السوداني يس عمر حسن للأيام نيوز إلى أن هذه الزيارة ليست حدثًا معزولًا، بل تأتي امتدادًا للقاء سابق جمع وزيري خارجية البلدين على هامش أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الثمانين، حيث جرى الاتفاق على تنشيط التعاون الاقتصادي وزيادة إنتاج النفط وفتح المعابر الحدودية. ويوضح أن «ما يدفع جوبا اليوم إلى تسريع خطواتها نحو الخرطوم هو الأزمة الاقتصادية الخانقة التي تمر بها، وحاجتها الماسة إلى تدفق العائدات النفطية والدولارات لإنعاش اقتصادها المترنح».

كما يرى يس أن الجنوب يسعى عبر هذا التقارب إلى ضمان استقرار خطوط نقل النفط التي تمر عبر الأراضي السودانية، خصوصًا بعد تزايد الهجمات والانفلات الأمني في مناطق العبور. لكنه في المقابل يحذر من أن استمرار جوبا في اللعب على الحبلين - بين الخرطوم وأبوظبي - قد يفقدها ثقة الشمال ويعرض مصالحها الحيوية للخطر.

ويختتم المحلل تصريحه بالقول: «زيارة وزير الخارجية إلى بورتسودان هي محاولة لإعادة التوازن، لكنها ستفقد معناها إن لم تُترجم إلى مواقف واضحة تدعم وحدة السودان واستقراره، بعيدًا عن ازدواجية المعايير والرهانات الخاطئة على مليشيا تتهاوى ميدانيًا وسياسيًا».

الشكل يعكس المضمون..

الأيام NEW

العدد 5607 - الخميس 09 أكتوبر 2025 م الموافق لـ 17 ربيع الثاني 1447 هـ

https://elayamnews.dz @elayemnews

التربية النفسية ضرورة لضمان الحصانة الروحية؟

د. بسيم عبد العظيم عبد القادر (كاتب وأكاديمي من مصر)

التربية النفسية.. هذه العبادة المنسية

وحيد حمّود (كاتب من لبنان)

فقر في الفيتامينات النفسية

سعاد عبد القادر القصير
(باحثة وكاتبة من لبنان)

التربية النفسية فريضة في عصر «الدخول إلى الخارج

سحر قلاوون (كاتبة من لبنان)

علم النفس للأدب كالملح للطعام

الدكتور عبد الوهاب برانية
(الأستاذ بجامعة الأزهر - مصر)

التربية بالأدب في ظلال الإسلام

صبري فوزي أبو حسين (وكيل كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بمدينة السادات بجامعة الأزهر - مصر)

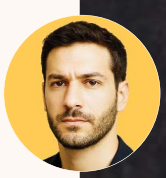

مطلوب وزارة للاتزان النفسي والعواطف المعتدلة!

يوسف الشمالي (كاتب من لبنان)

ما قيمة الحياة إن فقدت أرواحُنا قدرتَها على الحلم؟

زينب أمهز (كاتبة وباحثة من لبنان)

التربية النفسية.. أي ضرورة في حياة الفرد؟

سامر المعاني (كاتب من الأردن)

جيل منتصف التسعينيات.. الحظ واللعنة معا

عدوية موفق الدبس (باحثة وكاتبة سورية - لبنان)

دراسة في شخصية القائد «أتيلا الهوني»..

العامل النفسي في صعود وسقوط الأمم

بدر شحادة (باحث في الشؤون التاريخيّة والاستراتيجية من لبنان)

ثرثرة القلم.. شفاء النفوس

غنى نجيب الشفشق (كاتبة من لبنان)

الأمن النفسي في مواجهة الانقلاب على القيم..

أي خلاص للإنسانية؟

23-11

العدد 5607 - الخميس 09 أكتوبر 2025 م الموافق لـ 17 ربيع الثاني 1447 هـ
https://elayemnews.dz - @elayemnews
الأيام NEW

الأمن النفسي في مواجهة الانقلاب على القيم..

أي خـــــلاص للإنـسانيـــــة؟

إعداد: محمد ياسين رحمة

إن ما حقّقته الإنسانية من مُكتسبات مادية كبرى في عصرنا الراهن، قد خسرت في مقابله أمورا روحية أكبر، من أهمّها الأمن النفسي والاستقرار العاطفي والتصالح مع الذات. ولا يبدو المستقبل مُبشّرا بعودة الإنسانية إلى رشدها، وتحقيقها للتعادلية التي توازن بين الجسد والروح، بين المادة والقِيم، إلا إذا اعتنقنا التفاؤل وزعمنا بأن الحروب والكوارث والأزمات البيئية والصحية ووباء «القنوط العالمي».. أسبابٌ ستدفع بالإنسانية، لا سيما المجتمعات الغربية، إلى البحث عن الأمن النفسي في الأديان الصحيحة، بمعنى أن العصر القادم، الذي سيفتح أبوابه خلال سنين أو عقود قليلة آتية، سيكون «عصر الروح». ونترك للقارئ مهمّة استشراف الدين الصحيح القادر على انتشال الإنسانية وإنقاذها من «أمراض المادية»!

يُفترض أن تكون الإنسانية المعاصرة أكثر سعادة من عصورها الغابرة، فقد ارتقت بحياة الإنسان في جميع مناحيها: العلمية والتعليمية والغذائية والصحية.. غير أن مجرد الحنين إلى «الزمن الجميل» يحيل إلى تساؤلات حول افتقاد الإنسانية إلى كثيرٍ من قيمها الروحيّة «الفطرية»، كما يُحيل إلى التساؤل حول كينونة الإنسان ذاته: هل تحوّل إلى كائن قابل للبرمجة فكريًّا ووجدانيًّا؟

لن نطارد الأجوبة في مدارات الأفكار، ولكننا نستوقف الزمن الحاضر ونتساءل حول محاولات إيقاظ الضمير العالمي من خلال المظاهرات «العالمية» المُطالبة بوقف حرب الإبادة المُعلنة على غزّة. هذه المظاهرات هي في حقيقتها صرخاتُ الإنسانيةِ لطلب النجدة من الغول الذي صار يُهدّد أمنها النفسي، ويحجر على عواطفها وعلاقتها بالمحبة والخير والجمال، ويدفع بها إلى الانتحار في أتون الزّيف والأكاذيب والحروب والدّمار.

يُمكن القول بأن تلك المظاهرات لا تهدف إلى إنقاذ غزّة فحسب، بل تهدف أيضًا إلى خلاص الإنسانية من غيلان هذا العصر، والتحرّر من لعنات المادية وما يرتبط بها من مشتقّات مثل: الجشع، العبث، الظلم، الطغيان.. بمعنى أن آخر، إذا كانت الطوائف الدينية - على اختلاف أديانها - تنتظر مُخلِّصها، فإن غزّة قد تحمّلت مسؤولية تخليص الإنسانية جمعاء من «غيلان العصر»، فهي المعادل الموضوعي للمخلّص في جميع الأديان السماوية والوضعية..

وحتى لا نغالي في فكرة أن تكون غزّة هي المخلِّص، سنعتبرها المُجدّدة للفطرة الإنسانية التي ترفض الظلم والطغيان، وتؤمن بالمحبة والخير والجمال.. وفي الدين الإسلامي حديثٌ نبويٌّ صحيح يقول: «إنَّ اللَّهَ يبعث لهذه الأمَّةِ على رأسِ كلِّ مائةِ سنةٍ من يجدِّدُ لَها دينَها»، وباعتبار أن أنموذج العالِم الموسوعي الواحد - أو حتى مجموعة العلماء - الذي تثق به الأمّة وتُجمع عليه، قد انتهى، فإن غزّة يُمكنها أن تُحقّق الاجماع الذي يُجدّد معنى الامّة ويدفع شعوبها إلى العودة إلى الإسلام «الصحيح»، ويُمكنها أيضًا أن تكون المُجدّد للفطرة الإنسانية التي تكاد أن تلتهمها «غيلان العصر».

عزيزي القارئ، إن الحديث عن الأمن النفسي للإنسان العربي - أو الإنسان بشكل عام - من أخطر الأحاديث في عصرنا الراهن، ليس لأنه يرتبط بالصحة النفسية فحسب، بل لأنه أيضًا يرتبط بمستقبل الأجيال وكيف سيكون عليه واقعهم خلال العقود القادمة. ومن المُجدي التفكير جديًّا في التربية النفسية للأجيال الصاعدة وتحصينها روحيًّا، وضمان كل العناصر التي تؤمّن تنشئتها ونموّها في بيئة صحيّة مثالية.

ومن المُجدي استشعار الأخطار التي تهدّد النفسية الفردية والمجتمعية من خلال المظاهر التي يُمكن أن نرصدها في شيوع «الاغتراب الروحي»، والسلوك العدواني، والانقلاب في القيم.. وغيرها من المظاهر التي ترسم لنا شخصية الإنسان خلال مراحل قادمة. ومن الضروري استباق الأخطار والاحتياط منها، فما يدخل اليوم ضمن الخيارات الممكنة سيكون غدًا ممّا يفرضه العصر وضغوطات الحياة ولا مناص من التسليم والاستسلام..

في مدار هذه الأفكار، توجّهت جريدة «الأيام نيوز» إلى نخبة من الكُتّاب الأفاضل بهذه الرسالة: الإنسان هو معادلة بين الروح والجسد، وفي عصرنا الراهن تكاد نزوات الجسد أن تطغى على كل شؤون الروح، والله يعلم ما الذي ستكون عليه أحوال أجيالنا خلال العقود القادمة.. وإذا تأمّلنا في واقعنا الراهن، نرى مظاهر عدم الاتزان الشخصي وعدم التحكم في الانفعالات في المعاملات بين الناس أو حتى في الجوانب العاطفية والوجدانية، وافتقاد مجتمعاتنا إلى تقاليد الصراحة والوضوح وانتشار مظاهر سلوكية غريبة.. من هذا المنظور، هل تعتقدون بأن التربية النفسية صارت أمرًا ضروريًّا في تنشئة الأجيال؟ ولكن ما هي مصادر هذه التربية، وهل لها جذور وتاريخ في ثقافتنا العربية والشعبية؟

وباعتبار الأدب يلامس ويتقاطع مع علوم إنسانية واجتماعية عديدة، فهل تعتقدون بأنه من الواجب استثماره (الأدب) في التربية النفسية للأجيال؟ وهل على الكاتب والشاعر والمُبدع أن يكون على معرفة بأصول التربية النفسية؟

هل تستشعرون الأخطارَ المحدقة بالأجيال الصاعدة ذات التأثير على بيئتهم النفسية؟ وكيف ترون طُرق استباق «الكوارث» التي قد تلحق بمجتمعاتنا وأجيالنا؟

وماذا عنك عزيزي القارئ، هل تعتقد بأن الخوض في موضوع التربية النفسية والأمن النفسي مجرّد ترف فكري لا طائل منه، أم أنه ضرورة تستدعيها توجّهات العصر الذي يسوق الإنسانية إلى الهاوية؟ اجمع أبناءك أمامك، ثم انظر في عيونك، واستحضر الأفكار التي تقرأها في هذا الملف، وتساءل: أيّ مصير ينتظر أبنائي في عصر تتوجّه فيه الإنسانية من سيّء إلى أسوأ، والإنسان من خسران إلى خسران أكبر؟ وحتى لا أثقل عليك عزيزي القارئ، أدلّك على موقف بسيط استلّه العرب من سياقه ثم اعتنقوه لمواجهة الحياة، موقف يقول: «دعوها فإنها مأمورة».

التربية النفسية.. هذه العبادة المنسية!

وحيد حمّود

(كاتب من لبنان)

في البيت، في الشّارع، بين الأصحاب، في أروقة العمل، عند إشارات المرور، مع الفوز والخسارة، عند الخذلان والتعب، في كلّ مسارٍ من مسارات الحياة، لا جدوى من جسدٍ لا تهذّبه نفسٌ متّزنة أو تسعى للاتّزان بكلّ ما أوتيَت من عزم.

فلنفكّر مليًّا في أمر التّربية النّفسيّة، ما هي؟ وهل هي كما يُقال عبادةٌ منسيّة ومهمَلة؟ وما الشيء المترتّب عن إضاعة عبادةٍ كهذه بدءًا من الحلقة الصّغرى «حلقة العائلة» وانتهاءً بالحلقة الكبرى «حلقة المجتمع»؟

بدايةً، ووفقًا للمصدر «ويكيبيديا» لوحظ ظهور مفهوم التربية النفسية لأوّل مرّة في الكتابات الطبية في مقال كتبه «جون إي دونلي» بعنوان «العلاج النفسي وإعادة التأهيل» في دورية «علم النفس المرضي» التي نُشرت عام 1911. ولم يظهر الاستخدام الأول لكلمة «التربية النفسية» في الكتابات الطبية إلا بعد مرور 30 عامًا في عنوان كتاب «عيادة التربية النفسية» من تأليف «براين إي تومولينسون» وقد نُشر هذا الكتاب في عام 1941. أما في اللغة الفرنسية، فإن أول ظهور لمصطلح (psychoéducation) - أو التربية النفسية - فكان في الرسالة الجامعية (La stabilité du comportement) التي نُشرت في عام 1962.

ويُعزى انتشار مصطلح التربية النفسية وتطوّره إلى شكله الحالي في المقام الأول إلى الباحثة الأمريكية «سي إم أندرسون» في عام 1980 في سياق علاج الفصام.

فقد ركّز بحثها على تثقيف الأقارب بشأن عملية الفصام وأعراضها. كما ركّز بحثها على ترسيخ السلطة الاجتماعية وتحسين تعامل أفراد العائلة مع بعضهم البعض. وأخيرًا، تضمّن بحث «سي إم أندرسون» أساليب أكثر فعالية للتحكم في الضغوط. وللتربية النفسية في العلاج السلوكي أصولها في إعادة التعرف على المهارات العاطفية والاجتماعية. وفي السنوات القليلة الأخيرة ازداد تطوير برامج المجموعات النظامية، وذلك لجعل المعلومات مفهومة بصورة أكبر للمرضى وذويهم.

في محاولةٍ للتعقيب على هذه المعلومات، نرى أنّ هذا المصطلح حديث النّشأة، ولكنّه قديم المنشأ، إذ إنّ النفس البشريّة هي نفسها منذ أمر الله سيّدنا آدم وأمّنا حوّاء أن يسكُنا الأرض. ولا جرم أنّ التطوّر في علم المصطلحات هو دليلٌ على الوعي المجتمعي بما يختلج في هذه النّفس، من أجل ضبط التصرّفات أكثر وفَهم التغيّرات وفقًا للأحداث الكونيّة والتبدّلات الجغرافيّة والكوارث الطبيعيّة.

إضافةً إلى ما تقدّم، إنّ الإنسان محكومٌ بالتمَوضع والتعايش مع ما يحيطه، وهو إذّاك يقوم بأيّ شيء من أجل البقاء، إذ إنّ الحياة بكلّ ما فيها من متاعب مغرية، ولأنّ الإنسان، ملحدًا كان أم مؤمنًا، تظلّ لديه فكرة الحياة الثانية مبهَمة ومخيفة في آن، بحيث أنّ فاصلًا مؤكّدًا سيدخله الجميع وهو الموت أو كما يسمّى في عند العرب «هادم اللذّات»، ينغّص عليه سعادته، فيحاول درء هذا الفاصل وإبعاد شبح هذا الخطر عنه قدر المستطاع. وإنّنا إذا ما ألقينا نظرةً على الحضارات وجدنا أنّ الحروب منذ البدء وحتّى يومنا هذا تُقام من أجل البقاء، ويتمثّل هذا البقاء في التهافت والتنافس بل والتصادم من أجل الحصول على الموارد الأساسيّة من طعام وماء، وأُضيفت إليهما في عصرنا هذا، التكنولوجيا الذكيّة، بصفتها نوعًا من الموارد التي يستطيع المالك الأقوى لها التحكّم بحيوات البشر، وإفقارهم أو إغنائهم، والسيطرة على مواردهم الأخرى، وهنا تبرز أهميّة التربية النفسية جليّةً، إذ هل على الإنسان قضم موارد غيره من أجل أن يبقى؟ وهل عليه أن يقتل لكي ينجو؟ وهل تحتّم عليه أن يسيطر على ما ليس له من أجل أن يديم سعادته؟ أم أنّ التفكير بالآخر كشريكٍ على هذه الحياة يجب أن يوضع في الحسبان كي لا نصبح - وللأسف أصبحنا - في قانون الغاب؟

عَودٌ على بَدء، الطّفل يقلّد، فلا داعي لأن نعلّمه التعامل، إذ إنّه حتمًا سيتدرّب على ما يراه بأمّ عينيه، وما يسمعه بأذنيه، يكفي أن يصرخ الأب دائمًا في وجه كلّ شيء لكي يتعلّم الطّفل ألّا يقيم وزنًا لأحد، وربّما أن يكون متهوّرًا لا يعرف لغة العدّ حتى العشرة قبل أن يغضب، وهذا مثال بسيط يفقهه الطفل ويتجذّر في شخصيّته فيتحوّل إلى اضطراب نفسيّ حين يكبر. وإذا ما فتّشنا في فحوى العلاقات الأسرية بين الطفل والأهل لوجدنا العجب، لا سيما في عصرٍ تتشارك فيه الأجهزة الإلكترونيّة والمؤثّرون الجدد في تثقيف الطفل وتربيته نفسيًا في ظلّ غياب الأهل وانشغالاتهم، وهنا تتبدّى جليًّا هذه العبادة المنسيّة على النطاق الضيّق «نطاق العائلة» والتي ستتحكّم برحلة هذا الفرد في النطاق الواسع «نطاق المجتمع» مع الوقت.

إذًا، لا بُدّ من دقّ ناقوس الخطر، فالمجتمعات العربيّة تحديدًا تحيا في غفلة، وتقصّدت ذكر المجتمعات العربيّة لأنّها مجتمعات لم تزل تعطي أهميّةً للدين في الحياة، وإن بأشكال متفاوتة، فالرّسالات السّماويّة الثلاث تولي اهتمامًا شديدًا للتعامل مع الغير، وهذا الأمر إن دلّ على شيءٍ فإنّما يدلّ على انطلاق مصطلح التربية النفسيّة بنشأته من خالق هذا الكون، ولله المثل الأعلى، فهو الذي أمر بالعطف على الكبار ومجاراة الصّغار والحسنى للأهل وصلة الرحم للأقارب والمسامحة وغيرها من التعاليم التي وصلت مع كلّ رسالة سماوية.

ختامًا، ومن منظور الأدب، فإنّ للكلمات وَقعًا في نفس المتلقّي، إذ إنّ الأدباء والشعراء وأهل الفن عمومًا هم أكثر الذين يملكون القدرة على التأثير في الآخر عبر رسالتهم الفنية والأدبية، بحيث إنّ دور الأديب يمكن أن يتجلّى أيضًا في محاولة تقديم صورة أفضل للواقع وللعلاقات الإنسانيّة، فيكون بذلك قد قدّم ولو جزءًا بسيطًا من إبداعه في سبيل إنعاش هذه العبادة المنسيّة، لربّما نعود كعربٍ على الأقلّ أفضل أمّةٍ أُخرِجت للناس.

جيل منتصف التسعينيات... الحظ واللعنة معا!

عدوية موفق الدبس

(باحثة وكاتبة سورية - لبنان)

جيل منتصف التسعينيات، بل آخر دفعةٍ منه تحديدًا، جيلٌ محظوظ كما يصفه البعض، إذ لحق ببقايا زمنٍ أكثر هدوءًا وأقلّ تعقيدًا. جيلٌ عاش لمحة من البساطة قبل أن تغزونا التكنولوجيا بكل ما فيها من فوضى السرعة والسطحية.

كنتُ واحدةً من أولئك الذين امتدت لهم يد الحظ، لأكون في آخر صفوف هذا الجيل، الجيل الذي أصابته «لعنة الخوف من الزواج» كما يحلو للآخرين تسميتها. جيلٌ وُصِف بأنه معقّد تجاه الارتباط، يخشى المجهول، يهاب المسؤولية، أو يُتّهَم بأنه غير مقتدرٍ ماديًّا، أو أنه يعيش ظلال خيبة حبٍّ فاشلة جعلته متردّدًا أمام أيّ خطوة تالية.

في الحقيقة، أيها القارئ العزيز - ويا سعيدًا إن كنتَ واحدًا منا - فربما كان من يطلق هذه الأحكام محقًّا إلى حدٍّ ما، لكنهم نسوا حلقةً خفيّة، ضائعة، لم يسلّط الضوء عليها أحد، لا نحن ولا هم.

خوفُنا الحقيقي ليس من الزواج بحدّ ذاته، بل من الخطأ الذي لا يمكن إصلاحه، من التراجع المستحيل بعد القرار، من أن نختار شريكًا يحمل في داخله عُقدًا نفسيةً لا تنكشف إلا بعد فوات الأوان.

فإن حالفنا الحظ وأحببنا، جاء خوفٌ آخر أشد وطأة: أن يكون الحبّ ابتلاءً آخر في صورة جميلة، أن نُصاب باضطراباتٍ نفسيةٍ لا شفاء منها، أو بأمراض القلب والقلق والوساوس التي تفتك بالروح قبل الجسد.

وإن تجاوزنا كل ذلك، طرَق بابَنا خوفٌ جديد... الخوف من أن نُعيد الخطأ ذاته في تربية كائنٍ صغيرٍ أتى إلى هذا العالم البارد. أن نخشى أن يكون طفلنا ضحية جديدة في دائرةٍ مكرّرة من الخلل التربوي، أو أن نعجز عن تحقيق التوازن بين الحزم والحنان. أن نكون ميسورين ماديًّا فنمنحه كل شيء، حتى يغدو شابًّا لا يعرف قيمة ما بين يديه، يطلب المزيد دون شكر، وحين يدور دولاب الحياة وتتعثر الخطى، نُدرك أننا ربّينا في داخله بذرة الترف المفرط التي لا تعرف الصبر ولا القناعة.

نخاف أيضًا أن نغرس فيه وهمَ التفوّق الدائم، فنريده الأول في كل شيء: في اللعب، في الدراسة، في الحياة. فنخلق في داخلِه مريضًا جديدًا على هذا الكوكب... إنسانًا لا يحتمل الخسارة، لا يفهم أن الحياة لا تُقدّم كل ما نريد، فينهار أمام أول انكسار، لأنه لم يتعلّم أن السقوط جزءٌ من النمو.

ولعلّ أكثر ما يُدهشني، ذلك الأب الذي يصرخ في وجه ابنه ليمتنع عن التدخين، بينما هو ينفث الدخان أمامه كأستاذٍ في الرذيلة، أو تلك الأم التي تطلب من ابنها أن يتحدث بهدوء وهي توبّخه بصوتٍ مرتفع يزلزل الجدران! وعن تلك العائلة التي تلقّن طفلها الكذب لتجنّبِ الإحراج، ثم تعاقبه لاحقًا حين يصبح كاذبًا بارعا...

هذا هو الخوف الحقيقي، أن نُسيءَ تربية أطفالنا نفسيًّا ونحن نظنّ أننا نحسن صنعًا. أن نحاصرهم بالحماية المفرطة أو نغرقهم بالحرمان، فننتج شخصياتٍ مهزوزة، تائهة بين التمرد والاعتمادية.

إن علّمنا أبناءنا قيمة الصدق، استرحنا من عبء الشك، وإن تحدّثنا معهم بهدوءٍ، أسهمنا في تهدئة خلاياهم العصبية، ليصبحوا أكثر اتزانًا وقدرةً على استقبال الحياة بعقلٍ مطمئن.

عزيزي القارئ، لا تغترّ بالنجاحات الأكاديمية، فالطبيب أو الكاتب أو المهندس قد يحمل داخله عُقدًا تكفي لإشباع «يأجوج ومأجوج» من الاضطرابات! فالنجاح لا يعني بالضرورة سلامة النفس.

ولهذا، حين يحاول الطبيب النفسي فهم انهيار مريضه، يعود إلى هناك، إلى الطفولة، إلى البذرة الأولى التي لم تُروَ بالحبّ الصحيح ولا بالوعي الكافي.

أتذكر صديقةً لي تكبرني بسنوات، فقدت زوجها ودخلت في دوّامةٍ من رفض الواقع. وبعد فترةٍ طويلةٍ من التقبّل والعلاج، قررت أن تُعلّم ابنها ثقافة «الفقد» بوعيٍ عجيب. علّمته أن الأشياء قد تختفي فجأة، أن لعبتَه المفضلة قد تُكسر، وأن مدرسته قد تتبدّل، وأن الإنسان الذي يحبّه قد يغيب. كان الأمر قاسيًا، لكنه حقيقي. لقد أرادت أن تزرع في قلبه المناعة العاطفية قبل أن تفرضها عليه الحياة بقسوتها.

كم كنّا سنختصر من الألم لو أدركنا مبكرًا أهمية التوازن في التربية النفسية، لو فهمنا أن بناء الإنسان لا يبدأ من عقله بل من روحه، وأننا إن لم نحسن تربيتهم نفسيًّا، فسننجب أجسادًا تنمو وعقولًا تتكسّر.

جيل منتصف التسعينيات... جيل الحظّ واللعنة معًا. رأى كل شيء، وخاف من كل شيء، لكنه على الأقل وعى الخطر، وأدرك أن النجاة في هذا الزمن تبدأ من الداخل، لا من الخارج.

العدد 5607 - الخميس 09 أكتوبر 2025 م الموافق لـ 17 ربيع الثاني 1447 هـ
https://elayemnews.dz - @elayemnews
الأيام NEW

ما قيمة الحياة إن فقدت أرواحُنا قدرتَها على الحلم؟

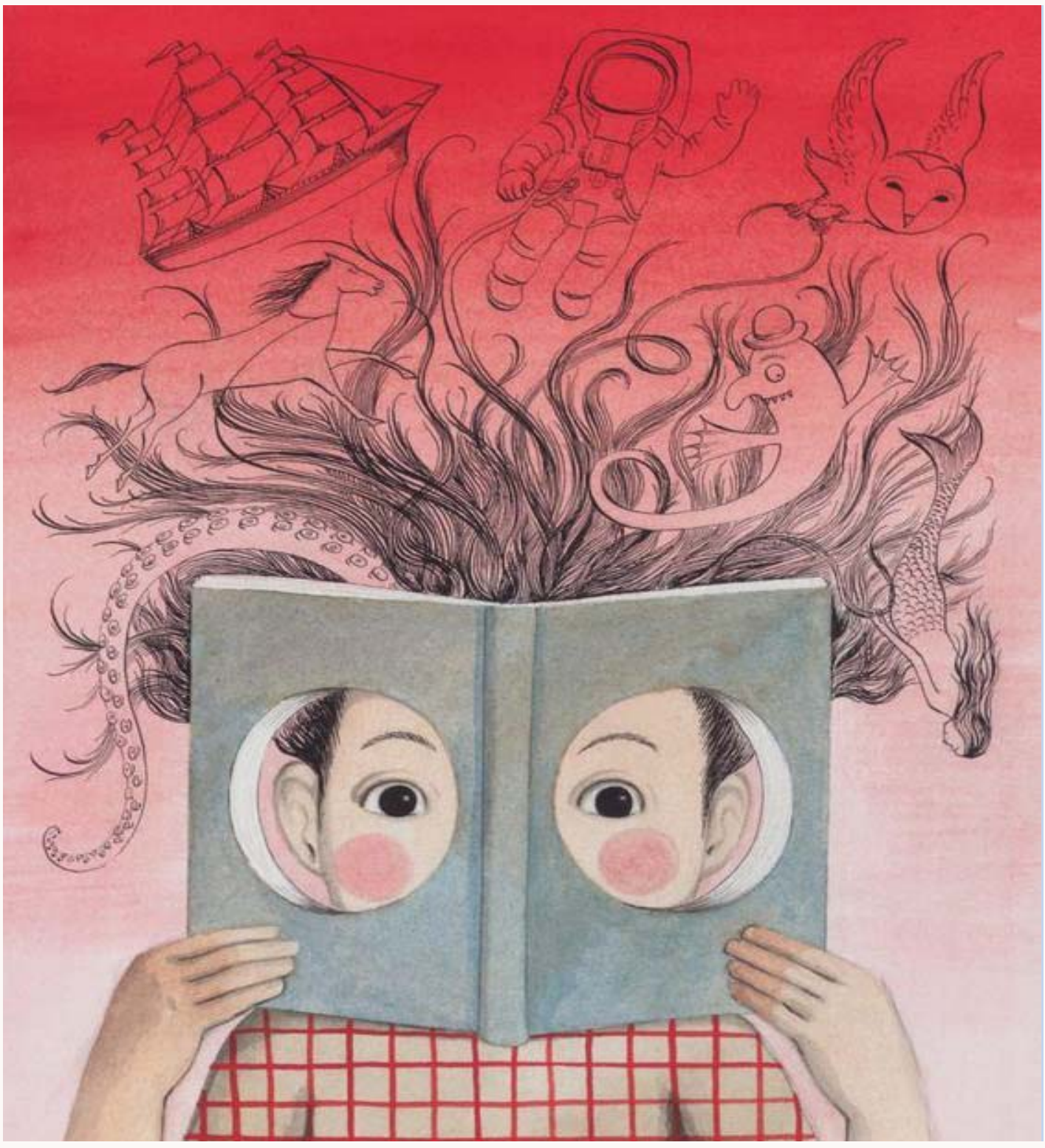

زينب أمهز

(كاتبة وباحثة من لبنان)

الإنسانُ روحٌ تتجلّى في هيئةٍ من طين، لا جسدٌ عابرٌ تسكنه ومضةُ روحٍ تائهة. وحين يَخفت صوتُ الداخل، ويغيب الهمسُ الذي يربطنا بأنفاسنا الأولى، يضطربُ ميزانُ الكائن، ويتداعى ما كان يشدّه إلى المعنى والجوهر. نغدو حينها أشبهَ بظلالٍ تمشي على الأرض، تُحركها المادّة وتُطفئها الضوضاء.

إنه زمنٌ تُستنزَفُ فيه الأرواح كما تُستنزَف الطاقات، وتُقايض فيه الأحلامُ بالوظائف، والكرامةُ بالتصفيق، والمشاعرُ بنقراتٍ على الشاشات. نُحاصَر بالخيبات، ونتنفسُ العدم في كل لحظةٍ من الصباح إلى المساء. نمنح فلا يُرى عطاؤنا، ونُحاطُ بأشباهِ بشرٍ لا يشبهوننا، يبتسمون بوجوهٍ ناعمةٍ تخفي قسوةَ الحجر. فكيف لا تتآكل النفس في هذا الطوفان؟

نستيقظُ على ألمٍ لا نعرف مصدره، وننام على وجعٍ يرفض أن يهدأ. وما بين الصحو والمنام، يتكاثَرُ الخراب: قتلٌ ودمارٌ، ظلمٌ وتجويع، خيانةٌ تُعلن عن نفسها كأنها بطولة، وبيعٌ للضمائر تحت لافتة المصلحة.

نعيش في دوّامةٍ تصهرنا من زفراتِ الخارج إلى أنينِ الجدران، حتّى يصبح البيتُ ضيّقًا، والسكوتُ صاخبًا، والهواءُ مثقلًا بما لا يُقال. فكيف يُرجى من روحٍ مرهقة أن تظلّ نقيّة؟ وكيف يُطلب من إنسانٍ محطّم أن يبتسم للعالم؟

لذا وفي مثل هذا العصر، لا تكون التربية النفسية ترفًا ولا زينةً في الخطاب، بل هي الملاذُ الأخير، ضرورةُ البقاء، وجرعةُ الوعي التي تحفظُ الإنسان من السقوطِ في العدم. إنها عودةٌ إلى الأصل، إلى النور الذي يسكننا منذ الأزل، إلى صوتٍ خافتٍ في أعماقنا يقول: «لا تنسَ أنك روحٌ، وأن جسدك ظلّها لا أكثر».

إذا ما تأمّلنا مشاهد الحياة اليومية، نرى الفرد منّا يجهل نفسه، يعجز عن احتواء مشاعره، لا يُحسن التعبير عنها، ولا يعرف كيف يواجه الأزمات. نرى الغضب يفيض لأبسط المواقف، والاكتئاب يتسرّب في صمتٍ كالماء في الجدران، والعلاقات تنهار تحت وطأة انفعالاتٍ لم تُفهم بعد. كلّ هذا ليس سوى دليل على غياب أدوات التوازن النفسي، وعلى فقرٍ في الوعي العاطفي والسلوكي، ما يجعل التربية النفسية ضرورةً لا تقلّ شأنًا عن التربية العلمية أو الدينية أو الأخلاقية.

إنها تربيةُ القلب قبل الفكر، وتهذيبُ الشعور قبل السلوك. تلك التي تُعلّم الإنسان كيف يُصغي إلى ذاته، كيف يتنفس حين يشتدّ الغضب، وكيف يرمّم شقوقه الداخلية دون أن يجرّح الآخرين. فما نفعُ علمٍ يشيّد المدن إن كان الإنسان في داخله خرابًا؟ وما جدوى الأخلاق إن لم تُلامس جرح النفس لتضمّده؟

التربية النفسية ليست دروسًا تُلقَى، بل رحلة وعيٍ صامتة، يبدأها المرء حين يجرؤ على النظر في مرآته الداخلية بلا خوف. هي أن تُصالح نفسك على ماضيك، وتغفر لضعفك، وتُدرّب قلبك على الصبر لا على التبلّد، وأن تتعلّم الإصغاء إلى الآخرين كما تُصغي إلى نَفَسك حين يتقطّع.

إنها فنّ العيش بسلامٍ في عالمٍ لا يعرف السكينة، هي البوصلة التي تُعيدنا إلى إنسانيتنا كلّما أوشكنا أن نضيع في الزحام. ومن دونها، سنظل نُكرّر أخطاءنا، ونُبدّل وجوهنا دون أن نُبدّل دواخلنا.

فيا ليتنا ندرك أن بناء الروح لا يقلّ شأنًا عن بناء الجسد، وأنّ الوعي بالنفس هو أوّل درجات النور، فمن عرف نفسه، عرف طريقه، ومن رعى قلبه، أزهر العالم من حوله.

في زمنٍ مثقلٍ بالحروب، حيث لا بيت يخلو من غائبٍ أو مفقود، ولا قلبٍ إلا واعتاد على الفقد كعادةٍ يوميّة، تغدو التربية النفسية طوقَ نجاةٍ وحيد في بحرٍ متلاطمٍ من الألم.

في وطنٍ مثل لبنان، كم من طفلٍ وُلد على أصوات الانفجارات، وفتح عينيه على ركام البيوت لا على ألوان الصباح؟ كم من أمٍّ فقدت أبناءها، وكم من شابٍّ تاه بين الحزن والنجاة؟ ومن لم يخسر عائلته خسر صديقًا، أو جارًا، أو أمنَه الداخلي.

نحيا وسط الخسارات المتراكمة، وفي ظلّ ضيقٍ اقتصاديّ يثقل الجيوب والأرواح معًا. صار الهمّ اليومي أكبر من طاقة النفس، وصارت الابتسامة مقاومةً صغيرةً في وجه الانهيار.

وفي خضمّ كل هذا، يقف الطفل اللبناني على عتبة الوعي المبكر، يحمل في عينيه صورًا لا تُناسب طفولته: دخان، صراخ، وجوه قلقة، ونقاشاتٍ في المنازل تُشبِه المعارك الصغيرة. كيف تنمو نفسٌ صغيرةٌ بين الركام ولا تلتوي؟ كيف يتعلّم الطفل الحبّ، إن لم يجد من يعلمه كيف يُحبّ ذاته أولًا؟

من هنا تبدأ الحاجة الملحّة إلى تربيةٍ نفسيةٍ رحيمة، تحتضن جراح الصغار قبل أن تتكلّس، وتزرع فيهم معنى الأمان لا الخوف، والتعاطف لا القسوة، والرجاء لا اللامبالاة. وهنا، وكما في كلّ مجال، يبرز دور الأدب والأديب، فالأديب هو من يُمسك بجمر الحقيقة بيدٍ، ويُمسّد على قلب القارئ بالأخرى. الأدب ليس ترفًا لغويًّا في زمن الخراب، بل هو علاجٌ للروح بالكلمة، هو مساحةٌ آمنةٌ يتنفّس فيها الإنسان، فيرى نفسه في الحروف فيشعر أنّه ليس وحده.

في القصيدة، يجد الموجوع مرآته. وفي الرواية، يتلمّس القارئ طريق الخلاص. فالكلمة الصادقة تفتح نافذةً للنور في أضيق الجدران، والأديب الذي يكتب عن الوجع لا يُثير الشجن فحسب، بل يُعلّم الناس كيف يتعاملون مع وجعهم بوعيٍ لا بانكسار.

والأدب الحقيقيُّ هو امتدادٌ للتربية النفسية، فكلاهما يُعالج الإنسان من الداخل، ويُعيد له صلته بما هو جميل، بما هو إنساني. إنه فنّ التطهير بالمعنى، حيث تتحوّل الكتابة إلى شفاءٍ بطيءٍ، كأنّ كل جملةٍ تضع ضمادًا على جرحٍ غير مرئي.

ولم يكن الأدب يومًا فنًّا قائمًا بذاته، يعيش في عزلة عن سائر ميادين الفكر والمعرفة، بل ظلّ على الدوام مرآةً تعكسُ تفاعل الإنسان مع الحياة في أبعادها المتعدّدة. فقد ارتبط الأدب بعلم الاجتماع حين صوّر البنى والعلاقات داخل المجتمع، وكشف علله وآماله وصراعاته. وامتدّ ليصافح علم النفس، فغاص في أعماق الذات الإنسانية، كاشفًا دوافعها، وهواجسها، وما يختلج في سرائرها من ألمٍ وأمل.

كما تداخل الأدب مع الفلسفة، إذ حمل همَّ الوجود الإنساني وسعى إلى الإجابة عن أسئلة المعنى والغاية، ومع التاريخ حين سجّل الحوادث بروح إنسانية نابضة، لا كما تسجّلها الوثائق الجامدة. بل إنّ الأدب اقترب حتى من العلوم الطبيعية والسياسية والاقتصادية، فكان في كلّ ميدانٍ لسانَ الإنسان وضميرَ العصر.

وهكذا فإنّ الأدب، في جوهره، مساحةَ التقاءٍ بين العاطفة والعقل، بين الفنّ والعلم، وبين الواقع والحلم، لأنه الفنّ القادر على ترجمة الإنسان في كلّ حالاته، فردًا كان أو مجتمعًا.

وإذا أردنا إيجاد بعض الحلول، فلعلّ المدرسة اليوم هي المكان الأقدر على حمل هذه الرسالة (فيما يخص الأطفال على وجه التحديد). فليست وظيفتها أن تُخرّج متفوّقين في الحساب واللّغة فحسب، بل أن تُربّي أرواحًا تعرف كيف تُحبّ، وكيف تُسامح، وكيف تصمد. ينبغي أن تُدرَّس في المدارس مهارات الحياة النفسية كما تُدرّس العلوم، أن يتعلّم الأطفال كيف يُعبّرون عن مشاعرهم، كيف يتعاملون مع الخوف والغضب، كيف يُصغون، وكيف يُشاركون الألم دون عنفٍ أو صمتٍ مُدمّر.

يمكن أن تُنشأ في المدارس جلسات تفريغ نفسي، حصص رسم وموسيقى، ومساحاتُ حوارٍ آمنةٍ يشرف عليها مختصّون أو تربويون مؤهّلون، يتعلّم فيها الأطفال كيف يعبّرون عن أنفسهم وعن مخاوفهم، كما يتعلمون أنّ البكاء ليس ضعفًا، وأنّ الحديث عن الخسارة بدايةُ التعافي منها.

إنّ زرع الوعي النفسي في الطفولة هو استثمارٌ في مستقبلٍ أقلّ قسوة، فكلّ جيلٍ متوازنٍ نفسيًّا هو وطنٌ قادرٌ على النهوض من تحت الركام. فيا ليتنا نُدرك أنّ بناء الإنسان أعمق من بناء الحجر، وأنّ التربية النفسية ليست ترفًا في زمن الوجع، بل هي اللبنة الأولى في إعادة إعمار الروح (خاصة في بلدنا). فما قيمة الأوطان إن لم يسكنها بشرٌ أصحّاء من الداخل؟ وما قيمة الحياة إن فقدت أرواحنا قدرتها على الحلم؟

فقر في الفيتامينات النفسية!

سعاد عبد القادر القصير

(باحثة وكاتبة من لبنان)

لا شكّ أنّنا اليوم نعيش لحظة حاسمة في حرب غزّة، شاخصة أبصارنا على أسطول النّجاة المتوّجه نحو المياه الإقليميّة الغزّاويّة. ولا أظن أنّ أحدًا منّا ما يزال غافلًا عن هول المجاعة التي حاصرت الشّعب المقاوم على يد أعداء الحياة، هؤلاء الذين ينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: 74). أولسنا نلمس من الإجرام إنقراض الرّحمة والإنسانيّة؟

نعم قد أخبرنا الله عنهم حتى شهدنا قسوة قلوبهم بأمّ العين، وعلى كلمة: (شو طالع بإيدنا؟)، جالسين نحن، واضعين الهمّ نصب أعيننا، خاضعين لضعفنا وهواننا، كعرب أوّلًا، وكمسلمين ثانيًا. أفليس من الواجب علينا أن نلبّي دعوة المظلومين ومشاركتهم مائدة المقاومة والدّفاع عن كينونة الإنسانيّة؟

إنّ أعراض الهوان الذي نعيشه، واللامبالاة في مسيرة الحقّ، والدّوخة التي نمثّلها كلّما مرّت أمامنا مشهديّات لهياكل عظميّة حيّة، يجعلني أتساءل: هل ترانا نعاني من فقر في فيتامينات النّخوة؟ لست أدري إذ لم يخطر ببال أحد يومًا أن يقصد مختبر المتفلسفين ليخضع إلى فحص الإنسانيّة، رغم أنّ الأعراض واضحة، والإنسان طبيب نفسه.

وحين بدأت البحث عن علاج وقائي، وجدت أنّنا ربّما تربّينا في طفولتنا تربية نفسيّة تختلف عن انتماءاتنا، ووجوديّتنا، حتى صادفني كتاب «فيتامينات نفسيّة» لمؤلّفته «نانسي صميدة»، وجدني ليقدّم لي عرضًا لثلاثين كبسولة تعمل على معالجة النّفس وتطوير الذّات، من ضمن هذه الكبسولات الدّوائيّة كان هناك وصفة خاصّة عن الحرّية، وربّما حان الوقت لنتجرّع بعض هذه الفيتامينات، للوقاية، (على صحّة السّلامة).

فجلست أفكّر قليلًا بيني وبين نفسي، إلى أيّ مدى تجرّعنا أصول تربيتنا النّفسيّة؟ أم أنّنا استهلكناها في اتّجاهات ومآرب حياتيّة أخرى؟ هل نحن أحرار أصلًا؟ هل انكسارنا حرّية؟ هل المحاصرون ضمن سلاسل من القتل والتّجويع أحرار؟ هل المستضعون أحرار؟ هل المهدّدون بكلمة الحقّ أحرار؟ هل الصّارخون المحاربون لحقوق الإنسان صوتهم يعكس صورة الحرّية؟ ماذا نمتلك من هذه الحريّة داخل عروق إنسانيّتنا؟

نعم، نحن تربّينا أنّ أمهّاتنا ولدننا أحرارًا، وأنّ رأسنا المرفوع ليس اختيارًا، ولكن متى كنّا حلفاء هذه الحرّية؟ متى طأطأنا رؤوسنا ويبست جذور التّربية النّفسيّة فينا حتى حرقتها شعلة الاستسلام والاكتئاب؟ متى تجرّعنا هذا الفيتامين ونحن في الأصل نطرق الأبواب ونعزف على أوتار الصّارخين ليكون صوتنا مسموعًا عبرهم. لست أدري إن كان انتظار اختفاء الأعراض وحدها سذاجة منّا، ونحن نعلم أنّ لا علّة إلّا ولها الدّواء المناسب، ولكنّنا ربّما نخاف الطّعم.

وحيث أنّنا أصبحنا واعين لحالتنا الصّحيّة، فربّما «أسطول الصّمود» يحمل معه بعض العلاج لعجزنا، أتراه يصل إلى ميناء النّجاة؟ فنتبادل معهم الدّواء، نعطيهم الفيتامين دال، ويتبرّعون لنا بفيتامين نون (نخوة) علّه يكون صدقة تساعدهم في فرج كربتهم، لنعيد إحياء النّفوس المريضة.

مطلوب وزارة للاتزان النفسي والعواطف المعتدلة!

يوسف الشمالي

(كاتب من لبنان)

في زمنٍ صار فيه الجسد هو البطل الأوحد على مسرح الوجود، تُرفع له الرايات وتُقدَّم له القرابين، بينما الروح واقفة عند الباب تنتظر إذن الدخول... يبدو أننا بحاجة ماسّة إلى «تربية نفسية» لا تقلّ أهمية عن تربية العضلات أو تعليم مهارات استخدام الهاتف المحمول بمهارة تفوق مهارة «سقراط» في الجدل. الإنسان، كما نحبّ أن نردّد في دروس الفلسفة، هو معادلة بين روح وجسد، غير أن ميزان المعادلة اليوم اختلّ إلى درجة باتت فيها الروح مجرّد «ملف مؤجل» على سطح المكتب.

حين ننظر حولنا، نجد أنفسنا وسط جيلٍ يجيد التعبير عن انفعالاته بالرموز التعبيرية أكثر من الكلمات، ويقيس صدقه بعدد «اللايكات»، ويعتقد أن الصراحة جريمة أخلاقية تستحق الإعدام الافتراضي. في المقاهي والجامعات وحتى البيوت، نرى وجوهًا تتكلّم كثيرًا ولا تقول شيئًا، وانفعالات تُشبه النيران العشوائية، وقلوبًا تحتاج إلى إعادة برمجة. فهل نلوم المدارس التي تُعلّمنا كيف نرسم خريطة العالم ولا تُعلّمنا كيف نرسم خريطة أنفسنا؟ أم نلوم الأسر التي تخاف من «الحديث النفسي» كأنّه طقس غامض من طقوس اليوغا الشيطانية؟

التربية النفسية إذًا ليست رفاهية، بل ضرورة وجودية لو أردنا أن نحافظ على ما تبقّى من إنسانيتنا قبل أن تتحوّل حياتنا إلى حلبة صراع بين الغرائز والتطبيقات. غير أنّ السؤال الأخطر هو: من أين نأتي بها؟ من معالج نفسي لا يجد وقتًا إلا بعد شهر من الحجز الإلكتروني؟ من مؤثّرٍ على «تيك توك» يُقدّم دروسًا في السلام الداخلي بخلفية موسيقية وصوت رخيم؟ أم من كتب علم النفس القديمة التي تتحدّث عن «اللاشعور الجمعي» بينما اللاشعور الفردي لدينا ينهار أمام إعلان عطر جديد؟

ولعلّ المفارقة الجميلة أن جذور التربية النفسية كانت دائمًا في ثقافتنا دون أن نمنحها اسمًا. ألم تكن وصايا الأمّهات والأجداد نوعًا من تربية الروح؟ ألم يكن الشعراء القُدامى يعلّموننا الصبر والعشق والكرامة من دون أن يفتحوا كتابًا في التحليل النفسي؟ في الأمثال الشعبية وحدها تجد علم نفسٍ عميقًا: «كل إناء بما فيه ينضح»، و«اللهم لا تجعلنا من الذين يرون القذى في عيون الناس وينسون الخشبة في عيونهم». لكننا، في زمن السرعة، صرنا نحفظ الأمثال كما نحفظ كلمات الأغاني: بلا روح ولا عبرة.

وهنا يدخل الأدب، ذاك الطبيب النفسي الذي لا يطلب أجرًا. فالرواية الجيدة جلسة علاج جماعية، والقصيدة نافذة تهوية للعقل، والمسرحية مرآة تشخّص العطب. الأدب ليس ترفًا لغويًّا، بل ممارسة علاجية لمن يجرؤ على مواجهة نفسه. ولعلّ الكاتب الحقّ هو من يمارس تربيةً نفسيّة على نفسه أولًا، قبل أن يكتب عن الآخرين. فكيف يمكن لشاعرٍ يكتب عن الجمال أن يزرع الجمال في النفوس وهو نفسه غارق في فوضاه؟ وكيف لمبدعٍ أن يكون «مربيًّا نفسيًّا» للأجيال إن لم يعرف أصول التوازن بين الحلم والواقع؟

المشكلة أننا نتعامل مع الأدب كما نتعامل مع الأدوية: نقرأه بعد فوات الأوان. نلجأ إليه عندما تصيبنا خيبات الحب أو الغربة أو القلق، بينما الأدب كان يجب أن يكون جزءًا من مناعتنا النفسية منذ البداية. فبدل أن نعلّم أولادنا جدول الضرب فقط، ماذا لو علّمناهم كيف لا «يضربهم» الواقع بهذه القسوة؟

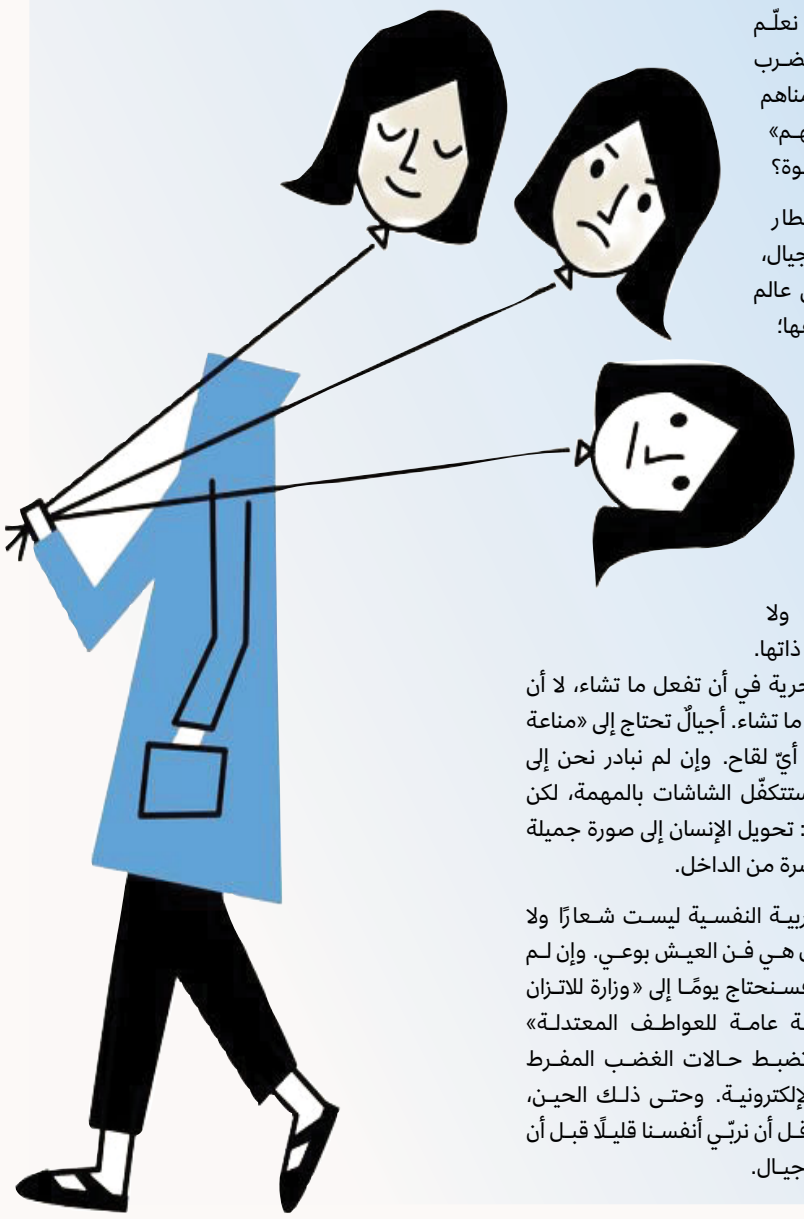

أما عن الأخطار المحدّقة بالأجيال، فهي لا تحتاج إلى عالم اجتماع ليكتشفها؛ يكفي أن تفتح ها تفك خمس د قا ئق لتدرك حجم العطب. أجيالٌ تعرف كل شيء عن التكنولوجيا، ولا تعرف شيئًا عن ذاتها. أجيالٌ تظنّ أن الحرية في أن تفعل ما تشاء، لا أن تفهم لماذا تفعل ما تشاء. أجيالٌ تحتاج إلى «مناعة نفسية» أكثر من أيّ لقاح. وإن لم نبادر نحن إلى تربيتها نفسيًّا، فستتكفّل الشاشات بالمهمة، لكن بطريقتها الخاصة: تحويل الإنسان إلى صورة جميلة من الخارج، متكسّرة من الداخل.

باختصار، التربية النفسية ليست شعارًا ولا مادة دراسية، بل هي فن العيش بوعي. وإن لم نستيقظ قريبًا، فسنحتاج يومًا إلى «وزارة للاتزان النفسي» و«هيئة عامة للعواطف المعتدلة» وشرطة خاصة تضبط حالات الغضب المفرط في التعليقات الإلكترونية. وحتى ذلك الحين، فلنحاول على الأقل أن نربّي أنفسنا قليلًا قبل أن نُطالب بتربية الأجيال.

الأيام NEW
العدد 5607 - الخميس 09 أكتوبر 2025 م الموافق لـ 17 ربيع الثاني 1447 هـ
https://elayemnews.dz - @elayemnews

في عصر العولمة الثقافية والفكرية..

التربية النفسية ضرورة لضمان الحصانة الروحية؟

د. بسيم عبد العظيم عبد القادر

(شاعر وناقد أكاديمي، كلية الآداب ـ جامعة المنوفية، رئيس لجنة العلاقات الخارجية بالنقابة العامة لاتحاد كتاب مصر)

الإنسان ليس جسدا فحسب، كما إنه ليس روحا فقط، وإنما هو معادلة بين الروح والجسد، في توازن يكفل استقامة الحياة وسعادة الإنسان، وفي عصرنا الراهن تكاد نزوات الجسد أن تطغى على كل شؤون الروح، والله يعلم ما الذي ستكون عليه أحوال أجيالنا خلال العقود القادمة، إذا استمر الوضع على ما هو عليه من طغيان الحياة المادية وإهمال الجوانب الروحية.

وإذا تأمّلنا في واقعنا الراهن، نرى مظاهر عدم الاتزان الشخصي وعدم التحكم في الانفعالات في المعاملات بين الناس أو حتى في الجوانب العاطفية والوجدانية، وافتقاد مجتمعاتنا إلى تقاليد الصراحة والوضوح وانتشار مظاهر سلوكية غريبة..

ومن هذا المنظور، فإننا نعتقد بأنَّ التربية النفسية صارت أمرًا ضروريًّا في تنشئة الأجيال، حفاظا على توازنها واستقامتها وضمانا لحياة سويّة مستقرة تُوازن بين المادة والروح، بين حاجات الجسم وضرورات النفس.

ومما لا شك فيه أن هذه التربية المتوازنة لها جذور وتاريخ في ثقافتنا العربية والشعبية، ولأنَّ الأدب يلامس ويتقاطع مع علوم إنسانية واجتماعية عديدة، فإننا نعتقد أنه من الواجب استثمار الأدب في التربية النفسية للأجيال، مثله مثل سائر العلوم والفنون القديمة والمستحدثة على السواء كالرسم والنحت والتصوير والموسيقى والغناء وغيرها.

وعلى الكاتب والشاعر والمُبدع أن يكون على معرفة بأصول التربية النفسية، حتى يكون لأدبه الأثر المرجو في هذه التربية المتوازنة لمَن يتعاطون هذا الأدب شعرًا كان أم نثرًا، لأننا نستشعر أخطارًا محدقة بالأجيال الصاعدة ولها تأثير كبير على بيئتهم النفسية والاجتماعية.

كما نرى ضرورة استعداد المجتمعات العربية وقادة الرأي فيها، من مؤسّسات وأفراد لإيجاد طُرق لاستباق «الكوارث» التي قد تلحق بمجتمعاتنا وأجيالنا، في عصر العولمة الثقافية والفكرية، ومحاولة فرض الأنموذج الغربي على مجتمعاتنا في التنشئة الاجتماعية، كما نرى ضرورة الاهتمام بالتربية النفسية للنشء، ومعرفة سبل اكتسابها، وعلاقتها بالأدب.

فالتربية النفسية ليست ترفًا فكريًّا ولا مسألة هامشية، بل هي عملية عميقة تهدف إلى بناء الإنسان من الداخل، وتحقيق التوازن بين روحه وجسده، وضبط انفعالاته، وتطوير شخصيته، ليعيش حياة متوازنة قوامها الأخلاق والوعي الذاتي.

وفي عصرنا الراهن، أصبحت التربية النفسية ضرورة ملحّة في ظل الضغوط الاجتماعية والاقتصادية والنفسية التي يواجهها الفرد والمجتمع.

مفهوم التربية النفسية وأهميتها

التربية النفسية هي عملية شاملة تهدف إلى تزكية النفس، وتنمية القدرات العقلية والعاطفية، وتحقيق التوازن بين متطلبات الجسد واحتياجات الروح. وقد أشار القرآن الكريم إلى أهمية تزكية النفس في قوله تعالى: «قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا» (الشمس، الآية: 9 – 10). وهذا يؤكد أنَّ نجاح الإنسان وفلاحه مرتبط بقدرته على تزكية نفسه وضبط شهواته وانفعالاته. وفي السنة النبوية، نجد حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم): «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»، وهذا الحديث يؤكد على أهمية التحكم في الانفعالات، وهو أحد أهداف التربية النفسية.

وهناك آيات قرآنية كثيرة تتناول مسألة التوازن بين متطلبات الجسد وتزكية النفس وتطهيرها، ولعل في حديث النفر الذين سألوا عن عبادة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فلما أخبروا بها، كأنهم تقالوها، فقالوا: أين نحن من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال: أما أنا فأقوم الليل ولا أنام، وقال الثاني وأما أنا فأصوم النهار ولا أفطر، وقال الثالث وأنا لا أتزوج النساء. فلما علم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال لهم: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما إني أتقاكم لله وأخشاكم له، ولكني أصوم وأفطر وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس مني .

وهذه التوجيهات النبوية وغيرها كثير تؤكد على أهمية التوازن بين مطالب الجسم والروح وعدم تغليب أحدهما على الآخر، فلا رهبانية في الإسلام، وقديما قيل: وراء كل راهبة قصة.

أهمية التربية النفسية

تتبدّى أهمية التربية النفسية في الجوانب الآتية:

1. الحد من الاضطرابات النفسية والاجتماعية.

2. بناء شخصيات متوازنة قادرة على مواجهة التحديات.

3. تعزيز القيم الأخلاقية والسلوكية في المجتمع.

سُبل اكتساب التربية النفسية

اكتساب التربية النفسية عملية متدرّجة تحتاج إلى وعي وجهد وممارسة مستمرة، ومن أهم سبلها:

1. المصادر الدينية:

- القرآن الكريم والسنة النبوية هما الأساس في تزكية النفس، وقد قال تعالى: «وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» (آل عمران: 134).

- الممارسات التعبديّة كالصلاة والصوم والزكاة والحج تُعلّم الإنسان الصبر والانضباط وضبط النفس، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والصوم جُنّة من اللغو والرفث، والزكاة تطهير للمال وتزكية للنفس من الشح والبخل، والحج غسل للنفس من أدرانها فمَن حج ولم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

2. التربية الأسرية:

- تبدأ التربية النفسية من الأسرة عبر غرس القيم منذ الصغر، فالتعليم في الصغر كالنقش في الحجر، وفي الحديث النبوي الشريف: كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه. والفطرة هنا تعني الإسلام.

كما يقول الشاعر:

وينشــأ ناشــئ الفتيان منا -- على ما كان عوده أبوه

- تشجيع الحوار والتواصل الإيجابي بين أفراد العائلة، لأنَّ التسلّط وفرض الرأي والقهر وعدم الحوار ينتج شخصيات مريضة نفسيًّا وغير قادرة على المشاركة في بناء المجتمع والإسهام في تطوره وتقدمه سياسيا واجتماعيا ونفسيا.

3. التربية الذاتية:

- محاسبة النفس بشكل دوري، وقد ورد في الأثر: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا، وزِنوا أعمالكم قبل أن توزَن عليكم. فمحاسبة النفس مدعاة لتصحيح الأخطاء أولا بأول، وإحداث التوازن بين الجسم والروح من جهة وبين الإنسان ومجتمعه من جهة أخرى.

- التأمل ومراجعة المشاعر والانفعالات، مما يؤثر في النفس، ويدعو إلى تصحيح الأخطاء بضبط المشاعر والانفعالات في تعاملات الإنسان مع نفسه وأقاربه وأصدقائه وزملائه وأبناء مجتمعه بل وأبناء المجتمعات الأخرى الذين قد يتعامل معهم، فيكون صورة مشرفة ومرآة صادقة لنفسه ولدينه ولمجتمعه، فكل إناء بالذي فيه ينضح.

4. المدرسة والمجتمع:

- المدارس بيئة مهمّة لتعليم مهارات الحياة والذكاء العاطفي، فهي الحاضنة التربوية الثانية بعد الأسرة ومنها يتعلم النشء كيفية السلوك السوي في المجتمع ومع الأقران والأساتذة، كما يتعلم مبادئ الحياة ومهاراتها كالتعاون والإيثار وحب الوطن والتضحية في سبيله وعدم الأنانية والرياضة وحب الأدب والفنون والعلوم وكيفية التعامل مع الآخرين وغير ذلك مما يسهم في إحداث التوازن في حياة الصغار بين مطالب الروح والبدن.

- توفير برامج إرشاد نفسي للطلاب، لمعالجة أوجه القصور التي تنتج عن جهل الآباء أو انشغالهم عن أبنائهم أو التفكك الأسري نتيجة انفصال الوالدين وغير ذلك مما يؤثر على نفسية الأبناء وعلى سلوكهم في المجتمع، ومن هنا كان هناك أخصائي اجتماعي وأخصائي نفسي في كل مدرسة بل وفي كل كلية ومعهد تعليمي لتقويم سلوك الطلاب وتوجيههم ليكونوا لبنات صالحة في بناء المجتمع.

5. الأدب والفن:

- الأدب يعكس النفس البشرية ويساعد في فهمها، فالأدب هو مرآة المجتمع التي تعكس أمراضه وعيوبه وتحاول أن تعالجها وتضع لها الحلول الناجعة.

- قراءة الروايات والقصص والشعر ينمّي التعاطف والقدرة على التأمل، ويرهف الحس ويهذّب الذوق بحيث يكون الإنسان مثقفا يتعاطف مع النماذج البشرية المهضومة الحق، ويقف في وجه الظلم في المجتمع ويصحح المفاهيم المغلوطة ويعالج الآفات التي خلفتها عصور الجهل والتخلف وسيطرت عليها الأعراف الفاسدة والتقاليد البائدة، بدلا من القيم الدينية السمحة والمبادئ القويمة، وكأننا عدنا إلى جاهلية القرون الأولى، ومن أمثلة ذلك موضوع الأخذ بالثأر وهو من العادات المتأصلة في صعيد مصر حتى اليوم وإن خفت حدّتها بعض الشيء مع انتشار التعليم وسيطرة الدولة وتطور العادات. وكذلك قضية ظلم المرأة وهضم حقها في الميراث، فهي من العادات الذميمة التي تخالف الشرع الحنيف.

علاقة الأدب بالتربية النفسية

الأدب هو مرآة النفس الإنسانية، وهو أحد الوسائل الفعّالة في التربية النفسية، حيث يتيح للإنسان فهم مشاعره ومشاعر الآخرين.

الأدب كأداة للتعبير عن النفس

يُعدُّ الشعر مرآة النفس الإنسانية، وصوت الضمير الجمعي للأمّة، وأداة من أقدم أدوات التهذيب والتوجيه، فمنذ أن نطق العربي بالشعر في الجاهلية، كان شعره تعبيرًا عن القيم التي تشكّل وعيه ووجدانه، وكان وسيلةً لتربية النفس على مكارم الأخلاق، وتغذية الروح بالمعاني السامية، وظل الشعر في كل عصر ينهض بهذا الدور التربوي والنفسي، حتى أصبح أحد أعمدة الأدب الأخلاقي في التراث العربي.

الشعر في العصر الجاهلي: مدرسة الفضائل والقيم

لم يكن الشعر الجاهلي مجرّد وصفٍ للخيل أو المديح أو الفخر، بل كان منبرًا للفضيلة والقيم، فقد دعا إلى الكرم، والشجاعة، والوفاء، والعفة، وصيانة العرض، واحترام العهود. وكان الشاعر يمثل ضمير القبيلة ومربيها، يمدح المحسن ويهجو المسيء، وبذلك يهذب السلوك العام.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك قول حاتم الطائي في الكرم، وعنترة بن شداد في الشجاعة والعفة، وزهير بن أبي سلمى في الحكم والعقل حيث يقول:

وَمَنْ لا يَذُدْ عن حوضِه بسلاحِه -- يُهدَّمْ، ومَنْ لا يَظلمِ الناسَ يُظلَمِ

فقد دعا زهير إلى التوازن بين العدل والقوة، موجهًا النفوس إلى الحكمة في السلوك، وهو نوع من التهذيب النفسي والاجتماعي.

صدر الإسلام.. الشعر في خدمة الإيمان والأخلاق

فمع بزوغ الإسلام، انتقل الشعر من ميدان القبيلة إلى ميدان العقيدة والإنسانية، فقد أصبح وسيلة للدفاع عن القيم الإسلامية، ومساندة الدعوة إلى الخير والإصلاح.

قال النبي (صلى الله عليه وسلم): «إنَّ من الشعر حكمة» (رواه البخاري). فقد كان الشعر عند المسلمين وسيلة لتربية النفس على الصبر والتقوى، وحبّ العمل الصالح. ومن شعراء تلك المرحلة «حسان بن ثابت» الذي جعل شعره سلاحًا للدفاع عن الرسول والدين، فغرس في النفوس معاني الإيمان والكرامة والعزة، وكذلك كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وغيرهم.

العصر الأموي والعباسي: الشعر بين الحكمة والتهذيب

وفي العصرين الأموي والعباسي، اتّسعت آفاق الشعر لتشمل موضوعات الزهد، والحكمة، والموعظة، والفكر، فظهر شعراء جعلوا من الشعر منبرًا للتأمل في النفس والوجود، أمثال أبي العتاهية والحسن البصري وأبي تمام والمتنبي.

قال أبو العتاهية في الزهد:

لا تأمن الموتَ في طرفٍ ولا نفسٍ -- وإنْ تمنَّعت بالحُجّابِ والحـــــرسِ

فهنا يربّي الشاعر النفس على التواضع، ويذكرها بفناء الدنيا.

أما المتنبي فقد غرس في النفوس الاعتداد بالذات والسعي إلى المجد، فقال:

وإذا كانتِ النفـــوسُ كبـارًا -- تعبتْ في مُـرادِها الأجسامُ

وقال أيضا:

ولم أر في عيوب الناس عيبا -- كنقص القادرين على التمـــام

فكان شعره مدرسة في الإرادة والطموح وعلوِّ الهمة.

في العصور المتأخرة والنهضة الحديثة: الشعر التربوي والوطني

وفي العصور المملوكية والعثمانية، ظل الشعر وسيلةً للحفاظ على الأخلاق والقيم رغم ضعف اللغة والسياسة، ثم جاء عصر النهضة، فنهض الشعر برسالة جديدة، تمزج بين تهذيب النفس وبعث الأمة.

فالشعراء أمثال محمود سامي البارودي وأحمد شوقي وإيليا أبو ماضي وحافظ إبراهيم أعادوا للشعر دوره التربوي والإنساني.

قال شوقي في تربية النفس:

وإنما الأممُ الأخلاقُ ما بقيتْ -- فإن همُ ذهبتْ أخلاقُهم ذهبوا

وهنا يربط الشاعر بين الفضيلة وبقاء الأمة، مؤكدًا أنَّ تهذيب النفوس هو أساس النهضة والخلود.

الشعر في العصر الحديث والمعاصر: تهذيب بالوعي والوجدان

وفي القرن العشرين وما بعده، أصبح الشعر وسيلةً للتهذيب الوجداني والفكري معًا، فدخلت إليه قيم إنسانية كالسلام، والحرية، والعدالة، والتسامح.

نجد في شعر إبراهيم ناجي ومحمود غنيم ومحمود درويش وغيرهم دعوات إلى تأمّل الذات، وتزكية الروح، والارتقاء بالإنسان نحو الوعي. فقد غدا الشعر في هذا العصر تربية فكرية ونفسية معًا، تزرع في النفس حبّ الجمال، وإدراك عمق الوجود، ومقاومة القبح والظلم.

أثر الشعر في تهذيب النفوس وغرس الفضائل

1. غرس القيم الأخلاقية: كالصدق، والكرم، والوفاء، والشجاعة، والتواضع.

2. تربية الوجدان: بإيقاظ الحسِّ الجمالي، وتنمية المشاعر النبيلة.

3. التزكية النفسية: بتطهير القلب من الأحقاد والأنانية.

4. الإصلاح الاجتماعي: بتصوير المظالم والحثِّ على العدل.

5. تحفيز الإرادة: ببثِّ روح الإصرار والأمل والمقاومة.

6. التذكير بالمآل: من خلال الزهد والتأمل في الموت والحياة والجزاء.

فلقد كان الشعر العربي منذ الجاهلية وحتى اليوم ضمير الأمّة ومربّيها. لم يكن ترفًا لغويًّا، بل أداة إصلاح وتهذيب وبناء للإنسان. وإذا كانت النفوس تُصاغ بالكلمة، فإنَّ الشعر هو أرقى تلك الكلمات، لأنه يخاطب الوجدان والعقل معًا، ويغرس في النفس معاني الخير والحق والجمال.

القصة والرواية

لا شك أنَّ القصة تساعد القارئ على استكشاف شخصيات متنوعة وصراعات نفسية مختلفة، مما يعزز قدرته على فهم ذاته والآخرين.

دور القصة والرواية في غرس القيم النبيلة وتهذيب النفوس

تُعدّ القصة والرواية من أعرق فنون الأدب الإنساني وأقواها تأثيرًا في وجدان المتلقي، إذ تخاطبان العاطفة والعقل معًا، وتقدمان القيم والمبادئ في ثوب فني شيق يجعل من التوجيه الأخلاقي تجربة وجدانية ممتعة، فالأدب القصصي ليس مجرد تسلية، بل هو وسيلة من وسائل التربية الفكرية والنفسية والاجتماعية، يسهم في تهذيب النفوس وغرس الفضائل، على نحو ما فعل القصص القرآني والنبوي، وما واصلته الرواية العربية المعاصرة بأساليبها الحديثة.

القصة في القرآن الكريم والتربية الأخلاقية

جاء القصص في القرآن الكريم لتربية الإنسان على الإيمان والفضيلة، لا لمجرد السرد أو التسلية. فقد عرض الله تعالى قصص الأنبياء والأمم السابقة للعبرة والعظة، قال تعالى: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ» (يوسف: 111).

ومن أبرز الأمثلة قصة يوسف (عليه السلام) التي تمثل مدرسة في الطُّهر والعفّة والصبر والعفو. فقد عرضت القصةُ فتنَ الشهوة والظلم والسجن، ثم أظهرت انتصار القيم على الأهواء، حين قال يوسف (عليه السلام): «مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» (يوسف، الآية: 23)، فكانت أنموذجًا رفيعًا للعفة ومقاومة الإغراء.

وكذلك قصة موسى (عليه السلام) التي تُعلّم الشجاعة والثقة بالله في مواجهة الطغيان، وقصة لقمان الحكيم التي تجسد الحكمة والأدب مع الله والوالدين والناس. وبهذا، أسّس القصص القرآني قاعدة تربوية متينة تجعل من السرد وسيلة للتهذيب النفسي وتزكية الروح.

القصة النبوية وغرس القيم العملية

اقتدى النبي (صلى الله عليه وسلم) بالمنهج القرآني في التربية بالقصة، فكان يروي لأصحابه قصصًا موجزة ذات دلالات عميقة. من ذلك قصة الرجل الذي سقى كلبًا فغفر الله له، وهي درس في الرحمة والعطاء الإنساني. وكذلك قصة الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، فكانت مثالاً للصدق في العمل والإخلاص في الدعاء والبر بالوالدين. وبهذه القصص الموجزة رسَّخ الرسول (صلى الله عليه وسلم) في نفوس أصحابه معاني الإخلاص والتوبة والرحمة والوفاء، فأصبحت القصة وسيلة تربوية عملية تُخاطب القلب والعقل معًا.

القصة والرواية في الأدب العربي الحديث

مع تطور الأدب العربي في العصر الحديث، أصبحت الرواية مرآة المجتمع ووسيلة فاعلة لغرس القيم والنهوض بالوعي، فقد استخدم كبار الروائيين القصة لتصوير الصراع بين الفضيلة والرذيلة، والعدل والظلم، والعلم والجهل. فنجد «طه حسين: في روايته «الأيام»

العدد 5607 - الخميس 09 أكتوبر 2025 م الموافق لـ 17 ربيع الثاني 1447 هـ
https://elayemnews.dz - @elayemnews
الأيام NEW

يقدم أنموذجًا لمعاناة الإنسان في سبيل العلم والنور، داعيًا إلى الصبر والمثابرة. ويبرز «نجيب محفوظ» في رواياته مثل «اللص والكلاب» و»بين القصرين» صورة الإنسان الذي يتأرجح بين القيم والغرائز، ليخلص القارئ إلى ضرورة التمسك بالمبادئ رغم التحولات الاجتماعية. أما «عبد الحميد جودة السحار» في روايته «أم العروسة»، فقد صوَّر دفء الأسرة المصرية وتماسكها، مُبرزًا قيم التعاون والتضحية.

وفي روايات «غسان كنفاني» مثل «رجال في الشمس»، نرى تجسيدًا لقيمة الكرامة ورفض الاستسلام، بينما تبرز روايات الطاهر وطار وعبد الرحمن منيف قيم الحرية والعدالة والصدق الفني في مواجهة الظلم.

الوظيفة النفسية والجمالية للقصة

تتجاوز القصة وظيفتها التعليمية إلى وظيفة نفسية عميقة، إذ تُسهم في تطهير النفس (التطهير الأرسطي)، وتحرير العواطف المكبوتة، وتقديم القدوة الحسنة، فحين يتماهى القارئ مع بطل الرواية الصالح أو المصلح، تتولد لديه رغبة في الاقتداء به، وحين يرى عاقبة الشر والفساد، يتجنبها طوعًا. وبهذا، تصبح القصة علاجًا للنفس ووسيلةً لبناء الضمير الجمعي للمجتمع، تجمع بين اللذة الفنية والفائدة الأخلاقية.

إنَّ القصة والرواية، منذ القصص القرآني والنبوي حتى الأدب المعاصر، كانت ولا تزال من أنبل وسائل التربية الإنسانية، فهي تُهذّب النفس، وتزرع في الإنسان قيم الصدق والعدل والصبر والرحمة، وإذا أحسن الكاتب استخدام هذا الفن بما يوافق قيم الحق والخير والجمال، تحولتْ الكلمة إلى طاقة روحية ترفع الإنسان إلى مدارج الكمال، وتجعل من الأدب رسالة للإصلاح والبناء.

الأدب الصوفي

- يركّز على تزكية النفس والسمو الروحي، مثل أشعار ابن الفارض وجلال الدين الرومي.

يُعَدُّ الأدب الصوفي من أرقى ألوان التعبير الإنساني التي سعت إلى تهذيب النفس، ورفعها من عالم الحسِّ إلى عالم الروح، تحقيقًا للتوازن الذي دعا إليه الإسلام بين الجسد والروح، فالإسلام لا ينكر الجسد ولا يُهمل الروح، بل يجعل لكلٍّ حقَّه، كما قال الرسول (صلى الله عليه وسلم): «إنَّ لِرَبِّكَ عليك حقًّا، ولِنَفْسِكَ عليك حقًّا، ولأَهْلِكَ عليك حقًّا، فأعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّه»، فكان الأدب الصوفي صوتًا حيًّا لهذه الفلسفة الوسطية التي تجمع بين الزهد والعمارة، بين العبادة والعمل.

مفهوم الأدب الصوفي: الأدب الصوفي هو نتاج التجربة الروحية التي يعيشها الصوفي في سعيه نحو معرفة الله، فيتحوّل الوجدان إلى كلمات، والمعرفة إلى شعرٍ أو نثرٍ مشبعٍ بالرموز والدلالات الروحية. وقد عبّر المتصوّفة عن مشاعرهم بلغة المحبة والعشق الإلهي، كما نجد عند الحلاج وابن الفارض وابن عربي وجلال الدين الرومي وغيرهم.

دوره في الارتقاء بالنفس الإنسانية: يهدف الأدب الصوفي إلى تطهير النفس من أدران الشهوة والأنانية، ودعوتها إلى السموّ بالحبّ الإلهي، فالإنسان في التصوُّف لا يُخلَق للغرائز فحسب، بل خُلق ليكون خليفة الله في الأرض. ومن هنا جاءت رمزية العشق الإلهي في الشعر الصوفي لتعبّر عن الاتحاد بالمطلق لا بالمعنى المادي، بل بالمعنى الروحي الذي يُذيب الأنا في محبة الله.

يقول ابن الفارض في تائيّته الكبرى:

زدني بفـــرطِ الحبِّ فيكَ تحيُّرًا -- وارحمْ حشىً بلظى هواكَ تسعَّرا

فهو يطلب من الله مزيدًا من الحبّ الذي يطهّر النفس من التعلّق بالدنيا، ويقرّبها من النور الإلهي.

تحقيق التوازن بين الروح والجسد: الأدب الصوفي لا يدعو إلى إهمال الجسد أو احتقاره، بل إلى تزكيته ليكون وسيلة لا غاية، فالمتصوف يروِّض الجسد بالصوم والذكر، ويغذّي الروح بالتأمل والعبادة، وهنا يتحقّق التوازن الذي أكّد عليه الإسلام، إذ إنَّ الروح بدون جسد لا تعمّر الأرض، والجسد بلا روح آلة خاوية. يقول جلال الدين الرومي في ديوانه:

لستُ من الطينِ، بل من روحِكَ يا ربِّ -- فكيفَ أُقيمُ في سجـــــنِ الجسدِ طويلاً؟

فهو لا يُنكر الجسد، لكنه يرى أنه ممرّ نحو النور، لا موطن إقامة.

أثر الأدب الصوفي في المجتمع الإسلامي: كان الأدب الصوفي مدرسة في الأخلاق والرحمة والتسامح، فقد علَّم الناس محبة الله والخلق جميعًا، ووجّههم إلى الزهد بلا انطواء، والعبادة بلا عزلة، وانتشرتْ أشعاره ونثره في الزوايا والطرق، تذكِّر الناس بالحق، وتواسي المهموم، وتدعو إلى الصفاء الداخلي.

وقد تأثر بالأدب الصوفي كثير من الأدباء والمفكرين، مثل الإمام الغزالي في «إحياء علوم الدين»، وابن عربي في «الفتوحات المكية» و»ترجمان الأشواق»، حيث امتزج الفكر بالعاطفة، والعلم بالذوق.

إن الأدب الصوفي لم يكن مجرّد كلماتٍ عن الحبّ الإلهي، بل كان منهج حياة يسعى إلى بناء الإنسان المتوازن روحًا وجسدًا، مؤمنًا بأنَّ السَّعادة الحقيقية تكمن في صفاء القلب لا في متاع الدنيا، وهكذا أسهم التَّصوُّف الأدبي في الارتقاء بالنفس الإنسانية، وفي تحقيق الانسجام بين عالم المادة وعالم الروح كما أراد الإسلام.

فالأدب، بجميع أشكاله، يسهم في غرس القيم، ويقدّم نماذج للتعامل مع الانفعالات والصراعات النفسية.

الأخطار المحدقة بالأجيال المعاصرة

تواجه الأجيال الصاعدة تحديات نفسية كبيرة، منها:

1. التأثير السلبي لمواقع التواصل الاجتماعي، مثل التنمّر الإلكتروني وضغوط المقارنة.

2. الصراع بين القيم التقليدية والحديثة، مما يؤدي إلى فقدان الهوية.

3. ضعف الروابط الأسريّة وقلّة الحوار داخل الأسرة.

4. قلة الوعي بالصحة النفسية وعدم توفر الدعم الكافي.

هذه الأخطار تستدعي برامج تربوية متخصصة لحماية الشباب وتنمية وعيهم النفسي.

استباق الكوارث النفسية

لمواجهة التحديات النفسية، نحتاج إلى استراتيجيات استباقية، منها:

1. إدخال التربية النفسية في المناهج الدراسية.

2. تدريب المعلمين والأسر على مهارات الدعم النفسي.

3. تعزيز القراءة الأدبية التي تبني الوعي النفسي.

4. إنشاء مراكز استشارية نفسية متاحة للجميع.

5. نشر ثقافة الصحة النفسية عبر الإعلام والمؤسسات الثقافية.

هذه الإجراءات تسهم في بناء جيل متوازن قادر على مواجهة الحياة بثقة وإيجابية، فالتربية النفسية هي الركيزة الأساسية لبناء الإنسان والمجتمع.

ومن خلال القرآن الكريم والسنة النبوية، والأدب بأشكاله المختلفة، نستطيع غرس القيم النفسية السليمة في الأجيال.

إنَّ الاستثمار في التربية النفسية ليس ترفًا، بل هو ضرورة لحماية الفرد والمجتمع من التفكك والاضطرابات.

وبهذا تتضح العلاقة الوطيدة بين الأدب والتربية النفسية، فكلاهما يسعى إلى بناء إنسان متوازن، يمتلك الوعي بذاته وبالآخرين، وقادر على مواجهة تحديات العصر.

ويطيب لي أنْ أختم هذا المقال المهم بقصيدة توجهتُ بها إلى ابني أحمد منذ سبعة عشر عاما في (10 - 11 - 1429 هـ - 8 - 11 - 2008 م)، بعنوان «رسالة إلى ولدي»، تجسّد دور الشعر في التربية والتوجيه إلى الفضائل والقيم والنبيلة والمُثل العليا، والتحذير من ضدها، والحضّ على طلب العلم والتمسك بالأخلاق لتحقيق الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

ولدي أحبك هل تعـــي -- إني وهبتك أجمعـــي
لم يا بني تثيـــرني -- وتسيل أنهر أدمعـــي
وتثير أمك يا فتـــى -- قد أجهشت بمدامـــع
دمع الأبوة يا حبيـــ -- ـب، دليل حرقة أضلـــع
إياك أن تعصي الإلـــ -- ـه بقول «أف» هل تعي؟
حرفان لو نطقا لكـــا -- نا صكة لمسامـــع
فاربأ بنفسك عنهمـــا -- كي لا تثير مواجعـــي
وتحطم الآمال فيـــ -- ـك، وتنتهي لفجائـــع
إنـا نريدك طيب الـــ -- أخلاق، رب منافـــع
ونريد منك تواضعـــا -- فلتتصف بتواضـــع
لكن نريدك شامخـــا -- ذا هيبة وترفـــع
بالدين كن مستمسكا -- في همـــة وتدافـــع
والعلم أتقنه تفـــز -- فالعلم أكبر شافـــع
فمداد عالمنا يفـــو -- ق دم الشهيد فســـارع
للفوز بالعليـــا وكن -- في العلم دون منـــازع
قم يا بني بهمـــة -- عليا كسيف قاطـــع
لنعيـد مجـــد بلادنا -- ونكف بأس الطامـــع
لن تستقيم أمـــورنا -- إلا بعلـــم نـــافع
وبحسن أخلاق وديـ -- ـن للشباب الخاشـــع
وتذكرن يا نجلنـــا -- إني وهبتك أجمعـــي
(والدك المحب لك).

التربية النفسية فريضة في عصر «الدخول إلى الخارج»!

سحر قلاوون

(كاتبة من لبنان)

إن الأيام التي تمرّ علينا في العصر الراهن فيها من التعقيد الكثير، ومن المشاكل ما لا يُعدّ ولا يُحصى، وعلى الرغم من ذلك قد تجد بعض الأهالي حين يتم الحديث أمامهم عن التربية النفسية يتململون ويتأفّفون، حتى أن قسما لا بأس به منهم قد يسخر من الفكرة قائلا: وما الداعي للتربية النفسية؟! لقد كبرنا ولم يتم التركيز كثيرا على مثل هكذا أمور حين كنّا صغارا، فلماذا نركّز نحن اليوم عليها؟!

لذلك لا بد لنا من أن نوضّح خطورة الأيام التي نعيشها، ولا ينبغي تجاهل أن هذه الأيام لا تشبه سابقاتها، فالمشاكل قد تفاقمت والأزمات قد ازدادت حدّة وخطورة، وبات الأبناء والبنات عِرضة لها.

فلا يمكن للأهل في يومنا هذا أن يتجاهلوا أمر التربية النفسية، مدّعين أن الأيام كفيلة بتعليم أبنائهم وتقويتهم، لأنهم إن فعلوا ذلك حقا، ستمرّ الأيام ليصدموا في نهاية المطاف بأنّ أولادهم قد باتوا أناسًا مدمّرين، خائفين على الدوام، قلقين ومتوتّرين بشكل مريب، غير قادرين على اتّخاذ قراراتهم بأنفسهم ومحبَطين من الدنيا وما فيها.

ففي السابق، كان إغلاق باب المنزل على الطفل، يعني أنه قد أصبح حاضرا بكامل تركيزه مع أبويه، يصغي إليهما ويتفاعل معهما، أما اليوم فالأمور قد اختلفت كثيرا، فباب المنزل وإن أغلق على الطفل، يبقى باب العالم مفتوحًا أمامه من خلال الهاتف والإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي.

فكم من الأهالي حين يسألون عن أطفالهم، يجيبون بأنهم في غرفتهم، ظنا منهم بأن وجود الطفل في غرفته يعني أنه لوحده، لكن الحقيقة المُرّة هي أن الطفل ليس وحيدا في الغرفة، بل يكون ممسكًا بهاتفه بيده، مطّلعا على أخبار من سمّوا أنفسهم «مؤثري مواقع التواصل الاجتماعي»، يستمع إليهم، يراقب نمط معيشتهم بعينين يملؤهما الذهول، ويتمنى لو كان مكانهم، ويصبح ناقمًا على وضعه المادي والاجتماعي وحاقدا على والديه لأنهما لا يساعدانه لكي يصبح مشهورا وغنيًّا ومؤثرا في عالم كثر فيه المؤثّرون بنسبة مخيفة.

كل هذا يجري مع الطفل، في حين أن أمّه وأباه يشعران بالاطمئنان لأنه لم يخرج من المنزل، إنهما يعتقدان أنه في أمان وأنه يتسلّى قليلا على هاتفه، لكنهما لا يعلمان أن الهاتف هو من يتسلى به، مع الأسف.

سيكبر هذا الطفل بروتين الحياة نفسها، ومع مرور السنوات سيصبح مراهقا غاضبا ووحيدا، وسيغضب أهله منه ويقولون إنهم لم يحسنوا تربيته، فيقررون معاقبته وإعادة تربيته من جديد لعلّهم يحصلون على نسخة أفضل من ولدهم.. لكن التربية التي يحتاجها ليست تلك التي تنتهي باللوم والعتاب والصراخ وإلقاء الاتهامات على هذا وذاك، بل إن الموضوع أعمق من هكذا بكثير.

إن المشكلة ليست في الأهل وحدهم، كما أنها ليست في الطفل وحده، بل إنها مشكلة عصرٍ بأكمله، لكن وكما نعرف أن لكل مشكلة حل ولكل داء دواء، علينا معالجة هذه المشكلة، والعلاج هنا يكون من خلال التربية النفسية.

أولا: يقع على عاتق الأبوين أن يثقّفا نفسيهما لكي يستطيعا تقديم المساعدة لأطفالهما.

ثانيا: عليهما التوقف عن لوم نفسيهما وعن لوم الأطفال، وأن يدركا أن المشكلة تبدأ بالانحسار متى ما توقفت حفلة اللوم وبدأ بالمقابل العمل الجاد من أجل تحسين الأمور.

ثالثا: ليس هنالك وقت متأخر، فحتى لو لم يتم البدء بالتربية النفسية السليمة منذ الصغر، سيتمكنان من السيطرة على الأمور بمجرد اتخاذ القرار الجدي النافع.

أخيرا وليس آخرا، على الأبناء أن يتذكروا أن أهلهم يحبونهم بلا أدنى شك، وهم لن يجدوا أحدا يحبهم مثلهم، وأن العالم الخارجي مليء بالصور البرّاقة والخادعة، فلا يجب أن يسمحوا لهذه الصور بأن تستمر في خداعهم، فكل مظاهر الثراء الفاحش التي يرونها تخفي وراءها حقائق مؤلمة، الله وحده يعلم بها، لذلك عليهم ألا يحسدوا أحدا على حياته التي لا يرون من حقيقتها الشيء الذي يذكر.

والآن، لا ينبغي علينا نسيان أن استشارة الأخصائيين النفسيين ليست بعيب أو حرام، بل هي ضرورة لكل أم وأب يجدون أنفسهم عاجزين عن مساعدة أولادهم، فربما يحتاجون شخصا آخر ليمدّ لهم يد العون ويساعدهم على الخروج من الدوامة التي وجدوا أنفسهم يعيشون فيها.

المهم في جميع الحالات مهما صعبت ألّا يتم تجاهل التربية النفسية لأنها ضرورية لكل طفل.

فالتربية النفسية واجب على كل أهل اتجاه أطفالهم، وإن لم يؤدوا هذا الواجب بكل أمانة وإخلاص سيجدون أنفسهم مضطرين لتحمل النتائج القاسية والمريرة.

في عصر الجسد وافتقاد الروح

ثرثرة القلم.. شفاء النفوس!

غنى نجيب الشفشق

(كاتبة من لبنان)

لا تشرق الرُّوح إلّا من دُجى ألمٍ -- هل تزهرُ الأرض إلّا إنْ بكى المطرُ

(جلال الدين الرُّومي).

تتعقّد الحياة يومًا بعد يوم، وتزداد شجون النَّاس واضطراباتهم في زمنٍ جوهرُه المادَّة. لم تعد التربيَّة النَّفسية ترفًا روحيًّا بل أصبحت أمرًا ضروريًّا كلَّما توالت الأيَّام وازدادت تشابكا.

عصر المادَّة، عصر الجسد، عصر التَّرفِ والشَّكليات، عصر السُّلوكيات... سمِّهِ ما شئتَ؛ كلُّها دلالات على أنَّنا افتقدنا الحسَّ الرُّوحي وتهذيب النَّفس.

والتَّربية النّفسيّة ليست منتجًا غربيًّا تمَّ تسويقهُ إلينا، بل على العكس فقد نشأت في قلب المجتمع العربيّ وتطوّرت. فلو استرقنا نظرة إلى الأدب الصُّوفي نجدهُ يتغنّى بالتَّزكية بالنَّفس وكبحِ الشَّهوات، وكذلك الأمر بالنِّسبةِ للشِّعر العربي والأدبَ الشَّعبيّ المتخم بالحكم والاتزان بين العقل والقلب.

فالأدب جسر عبور إلى محطّةِ الرُّوح وغسل النَّفس من براثنِ المادَّة وأوساخها.

الكاتب بين المادة والرّوح

يمكن للكاتب أنْ يطهّرَ الرُّوح وينقِّيها لو استطاع أن يضعَ قلمَه في خضمِّ هذه المشكلة، لا أن يزيدها تعقيدًا بتمجيدِ الفرديّةِ وفوضى العبثيَّة وإرهاق الرُّوح بتساؤلاتٍ تزيدنا اضطرابًا. ومن إيمانِنا بالكلمةِ، فإنَّ النَّفس المتألِّمة تجد شفاءها بين أغلفة الكتبِ، وبين انزياحاتِ القلمِ وهو يعبّرُ بثرثرةٍ أشبهُ بالهمسِ عن أوجاعها وقضاياها عندما يفتح لنا بوّابة التَّفكير النَّقدي وتأمّل تجارب الآخرين.

«الإنسان معادلةُ روحٍ وجسد» وعليها أن تبقى متوازنة من أيّ خللٍ، فلا يجوزُ الفصلُ بينهما. الرُّوح زائلة والجسدُ فانٍ، وكلاهما يحدِّدان طبيعة الإنسان.

دور الأدب يتجلّى في تكريس الوعي ونشر الثّقافة وتهذيب النُّفوس، والقراءة والكتابة طقسان من طقوسِ التَّربية النَّفسية فمن خلالهما يمكن للمرء أن يغوص في أغوارِ ذاتِه ويكشف مكنونات أعماقهِ فيذهبُ بروحِهِ نحو التأمّل والتَّفكر بعيدًا عن ضجيجِ الماديّاتِ وصخب السُّلوكياتِ الغريبة.

«جلال الدّين الرومي» رمز السَّكينة الرُّوحيّة وعلمها، ولا يراها مشرقة إلا من دجى التَّعب، فلولا المشقَّة لما أشرقت شمسنا ولا أمطر الغيم فوق حقولِ يبابِ النَّفس، حتَّى أنَّنا قد نفنى في البحثِ عنها خلف مخلّفاتِ الدّهر. وينادي قائلاً:» أعطيتُ الرُّوح أُذنًا خاصّة بها لتسمعَ أمورًا لا يفهمها العقل». وانطلاقًا من هنا نرى إيمانه الرَّاسخ بقيمةِ الرُّوح وأهميَّتها، فهي عينُ وأذن العقل نقطع بهما سبلاً وعرةً لا يجيدُ القلب السَّير فيها، فإن أصغينا لزقزقتها بصمتٍ وعينين مغمضتين قادتنا نحو الخلاص، وإن تمسكّنا بما يتخبَّطه عقلُ الفرد لكنَّا نُصرَعُ في المهالكِ.

ورغم ذلك يؤكّد ضرورة ارتباط الفرد بمجتمعه، فالاضطراب والأمراض النَّفسية خُلقت من رَحمِ الوحدة، لذا على المرء أن يتمسَّكَ بيدِ صاحبِهِ في زمنٍ قلَّ فيه ترابط الأخوّة والمحبَّة.

«ذلك أنَّ الرُّوح عندما لا تكون متّصلة بالمحبة تصبحُ إلى الأبدِ مع ذاتِها عمياء وحزينة».

لندع الأدب يحملنا معه من فوضى العالم إلى سكينة الرُّوح، فهو تأشيرة الخلاص؛ يوقظنا من غفلتنا ويحثّنا بأنَّ جوهر الإنسان ليس مادياته إنَّما ذلك النُّور المنسوج في ظلمةِ داخله.

العدد 5607 - الخميس 09 أكتوبر 2025 م الموافق لـ 17 ربيع الثاني 1447 هـ
https://elayemnews.dz - @elayemnews
الأيام NEW

التربية بالأدب في ظـلال الإسلام

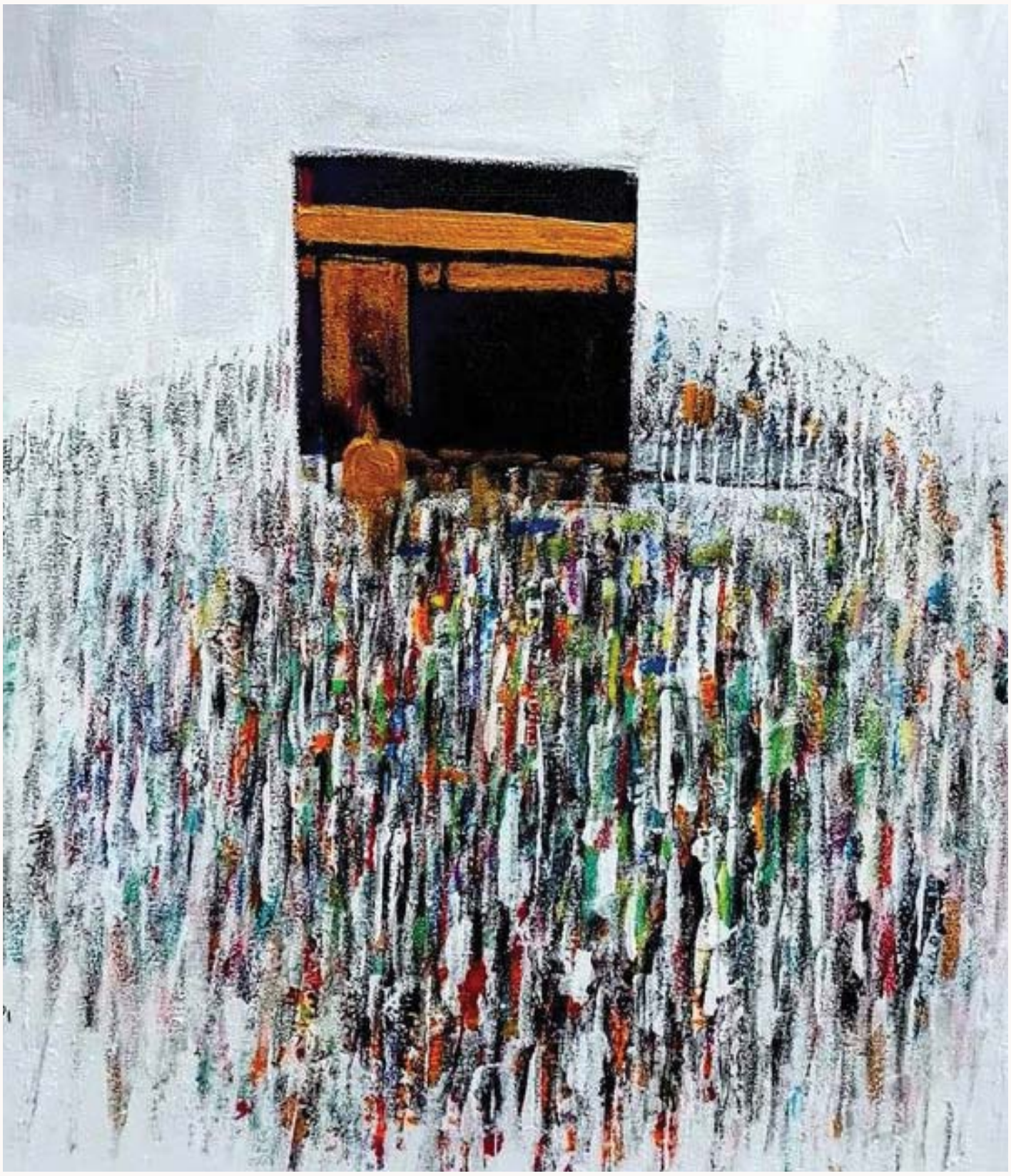

أ.د. صبري فوزي أبو حسين

(وكيل كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بمدينة السادات بجامعة الأزهر - مصر)

لا ريب في أن الإنسان هو معادلة بين الروح والجسد، وفي عصرنا الراهن تكاد نزوات الجسد أن تطغى على كل شؤون الروح، والله يعلم ما الذي ستكون عليه أحوال أجيالنا خلال العقود القادمة.. وإذا تأمّلنا في واقعنا الراهن، نرى مظاهر عدم الاتزان الشخصي وعدم التحكم في الانفعالات في المعاملات بين الناس أو حتى في الجوانب العاطفية والوجدانية، وافتقاد مجتمعاتنا إلى تقاليد الصراحة والوضوح وانتشار مظاهر سلوكية غريبة.. من هذا المنظور، فالتربية النفسية صارت أمرًا ضروريًّا في تنشئة الأجيال. وباعتبار الأدب يلامس ويتقاطع مع علوم إنسانية واجتماعية عديدة، ومن الواجب استثماره (الأدب) في التربية النفسية للأجيال القادمة وعلى الكاتب والشاعر والمُبدع أن يكون على معرفة بأصول التربية النفسية. وذلك لأننا نستشعر الأخطار المحدقة بالأجيال الصاعدة ذات التأثير على بيئتهم النفسية!

والأدب مرتبط بالتربية ارتباطًا شديدًا حتى في دلالاته اللغوية؛ فقد جاء في «لسان العرب» و«تاج العروس»: «الأَدَبُ، مُحَرَّكَةً: الذي يَتَأَدَّبُ به الأَديبُ من الناس، سُمّيَ به لأَنه يَأْدِبُ الناسَ إلى المَحَامِدِ وَيَنْهَاهُم عن المَقَابِحِ، والأَدَبُ مَلَكَةٌ تَعْصِمُ مَنْ قامت به عمَّا يَشِينُه، وفي المصباح: هو تَعَلُّم رِيَاضَةِ النَّفْسِ ومَحَاسِنِ الأَخْلاَق. وقال أَبو زيد الأَنصاريّ: الأَدبُ يَقَع على كل رِيَاضَةِ مَحْمُودَةٍ يَتَخَرَّجُ بها الإِنسانُ في فَضِيلَةٍ من الفَضَائِل.. أَو هو استعمالُ ما يُحْمَدُ قَوْلاً وفِعْلاً، أَو الأَخْذُ أَو الوُقُوفُ مع المُسْتَحْسَنَات أَو تَعْظِيمُ مَنْ فوقَك والرِّفْق بمَنْ دُونَك، أو هو حُسْنُ الأَخلاق وفِعْلُ المَكَارِم... أَدَبْتُه أَدْباً، مِنْ بابِ ضَرَب: عَلَّمْتُه رِيَاضَةَ النَّفْسِ ومَحَاسِن الأَخلاق، وأَدَّبْتُه تَأْدِيباً مُبَالَغَةٌ وتَكْثِيرٌ، ومنه قيل: أَدَّبْتُه تَأْدِيباً، إذا عَاقَبْتَه على إِسَاءَته؛ لأَنه سببٌ يدعو إلى حَقِيقَةِ الأَدَبِ، و... أَدَبَه، كضَرَبَ وأَدَّبَه: راضَ أَخْلاَقَه وعَاقَبَه على إساءَته لِدُعَائِه إِيَّاهُ إلى حَقِيقَةِ الأَدَب».

وبتدبّر ألفاظ: (اللسان والقول والكلام والشعر والقصص والبيان) في القرآن الكريم يتضح لنا وجود نظرية متكاملة حول ضوابط البيان الإسلامي من حيث متطلباته ومحاذيره، من خلال ثنائية: الكلم الطيب والكلم الخبيث، ومدح الكلم الإيجابي بالعروبة، والإبانة، والطيب، والحسن، والسداد، ونفي رذائل الخبث والكذب والخيانة واللغو والإفساد والهمز واللمز عنه. ومن خلال التنظير لأهم جنسين أدبيين: الشعر والقصة؛ فالإسلام: «لا يحارب الشعر والفن لذاته كما قد يفهم من ظاهر اللفظ. إنما يحارب المنهج الذي سار عليه الشعر والفن بمنهج الأهواء والانفعالات التي لا ضابط لها، ومنهج الأحلام الموهومة التي تشغل أصحابها عن تحقيقها، فأما حين تستقر الروح على منهج الإسلام، وتنضج بتأثراتها الإسلامية شعرا وفنا، وتعمل في الوقت ذاته على تحقيق هذه المشاعر النبيلة في دنيا الواقع، ولا تكتفي بخلق عوالم وهمية تعيش فيها، وتدع واقع الحياة - كما هو - مشوهًا متخلفا قبيحا، أما حين يكون للروح منهج ثابت يهدف إلى غاية إسلامية، وحين تنظر إلى الدنيا فتراها من زاوية لإسلام، في ضوء الإسلام، ثم تعبر عن ذلك كله شعرا وفنا، فأما عند ذلك فالإسلام لا يكره الشعر ولا يحارب الفن كما يفهم من ظاهر الألفاظ». فلم يحرم القرآن الكريم قول الشعر، ولم يقف دونه أو ينتقصه من حيث قيمه المعرفة إذا التزم بالحق، وأغراض الشعر جميعها معرضة للشاعر، إذا قصد فيها تغليب جانب الخير على جانب الشر، فالمضامين الشعرية وحدها هي التي خضعت لمبدأ الصالح وغير الصالح من الشعر، أما الأطر الشكلية فلم ينتقصها القرآن «ولم يحدد شكلا معينا يلتزم به الشعراء ولا يخرجون عنه، لأن الصياغة في ذاتها لا توصف بالفضيلة أو بضدها». كما يقرر الدكتور «محمد بن مريسي الحارثيط.

إن الدين يلتقي في حقيقة النفس بالفن؛ فكلاهما انطلاق من عالم الضرورة، وكلاهما شوق مجنّح لعالم الكمال؛ وكلاهما ثورة على آلية الحياة... والفن الإسلامي ليس بالضرورة هو الفن الذي يتحدث عن الإسلام! وهو على وجه اليقين ليس الوعظ المباشر والحث على اتباع الفضائل (فقط)، وليس هو كذلك حقائق العقيدة مجردة، مبلورة في صورة فلسفية. إنما هو الفن الذي يرسم صورة الوجود من زاوية التصور الإسلامي لهذا الوجود... هو الفن الذي يهيّئ اللقاء الكامل بين الجمال والحق؛ فالجمال حقيقة في هذا الكون، والحق هو ذروة الجمال، كما يقرر صاحب كتاب «منهج الفن الإسلامي».

وكان موقف الرسول (صلى الله عليه وسلم) من الشعر والشعراء يدور حول إبراز المفهوم الجديد الذي حدّده القرآن الكريم للشعر والدور المطلوب من الشعراء؛ فقد تشكل موقف الرسول (صلى الله عليه وسلم) من الشعر في الاتجاهين نفسهما الوارد ذكرهما في خواتيم سورة الشعراء، وهما:

الأول أعطى فيه الشعر أهميةً باعتباره فنًّا معرفيًّا قادرًا على تشكيل العقول من خلال قيمه المعرفية الخيرية والفنية الموحية. وهذا هو الاتجاه الذي استأثر باهتمام الرسول الكريم. ومن أمثلة ذلك:

- عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «إن من البيان سحرا وإن من الشعر حكما» وفي رواية: «إن من الشعر لحكمة»؛ فليس كل شعر غواية بل منه ما يتضمن إقامة الحق والحث على الخير، وإطلاق اسم الحكمة يدعو إلى رزانة العقل والرأي وشرافة الخُلُق.

- أخرج عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال: «لما نزلت وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ» أتيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقلت: يا رسول الله، ماذا ترى في الشعر؟ فقال: إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه. والذي نفس محمد بيده لكأنما تنضحونهم بالنبل».

- قال ابن سعد في الطبقات: أخبرنا عبد الوهاب أخبرنا ابن عوف عن ابن سيرين «أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال لكعب بن مالك: هيه: فأنشده. فقال: لهو أشد عليهم من وقع النبل»، وفي رواية لمسلم عن عائشة (رضي الله عنها): «اهجوا قريشا فإنه أشد عليها من رشق النبل»، وفي رواية للترمذي: «خل عنهم يا عمر، فلهو أسرع فيهم من نضح النبل»، وفي لفظ للنسائي: قال لحسان: «اهج المشركين، فإن روح القدس معك».

- أخرج الحاكم وابن مردويه من طريق مجالد عن الشعبي عن جابر أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال يوم الأحزاب: «من يحمى أعراض المسلمين؟ فقال حسان: أنا. قال: فقم اهجهم، فإن روح القدس سيعينك».

- وروي عن عمر بن الشريد عن أبيه قال: استنشدني النبي (صلى الله عليه وسلم) شعر أمية ابن أبي الصلت وأنشدته، فأخذ النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول: «هيه هيه». حتى أنشدته مائة قافية. فقال: «إن كاد ليسلم».

أما الاتجاه الثاني فقد تناول فيه الشعر من زاوية ما يحدثه من ضرر أو أذى فذلك مذموم منهي عنه، وكانت مواقفه قليلة في هذا الاتجاه إذا ما قورنت بمواقفه التوجيهية للشعر والشعراء في الاتجاه الأول؛ فالرسول (صلى الله عليه وسلم) بشر يتأثر بالكلمة والموقف، وعربي في قمة الفصاحة، يقدّر التعبير الفني، ويعرف خطره وعمق تأثيره في النفوس ويطرب له حين يعبّر عن مبادئ خلقية وجمالية مقبولة من وجهة الدين الجديد، ويرفضه ويقبحه حين يكون دعوة للشر أو الشقاق أو الرذيلة أو تحريضًا على طرح الجدّيَّة في الحياة والاستسلام لمباذلها. ومن أمثلة ذلك ما رُوِي من أن النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «لِأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ رَجُلٍ قَيْحًا يَرِيهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا». والتَّحْقِيقَ أَنَّ الحَدِيثَ الصَّحِيحَ الْمُصَرِّحَ بِأَنَّ امْتِلَاءَ الْجَوْفِ مِنَ الْقَيْحِ الْمُفْسِدِ لَهُ خَيْرٌ مِنِ امْتِلَائِهِ مِنَ الشِّعْرِ، مَحْمُولٌ عَلَى مَنْ أَقْبَلَ عَلَى الشِّعْرِ، وَاشْتَغَلَ بِهِ عَنِ الذِّكْرِ، وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَلَى الشِّعْرِ الْقَبِيحِ الْمُتَضَمِّنِ لِلْكَذِبِ، وَالْبَاطِلِ كَذِكْرِ الْخَمْرِ وَمَحَاسِنِ النِّسَاءِ الْأَجْنَبِيَّاتِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

أما عن شبهة أن نفي الشعر عن الذات النبوية دال على رفض الشعر وذمّه قاطبة؛ فقد اتفق المفسرون والباحثون قاطبةً على أن الله تعالى لم يجعل في طبع النبي (صلى الله عليه وسلم) القدرة على نظم الشعر، وقد فطره على النُّفرة بين ملَكته الكلامية والملَكة الشعرية، أي لم يجعل له ملَكة أصحاب قرض الشعر؛ لأنه أراد أن يقطع من نفوس المكذبين دابر أن يكون النبي (صلى الله عليه وسلم) شاعرًا، وأن يكون قرآنه شعرًا؛ ليتضح بهتانهم عند من له أدنى مُسكة من تمييز الكلام. وليس المراد نفي إنشاء الشعر عنه؛ لأن إنشاء الشعر غير تعلُّمه، فكم من راوية للأشعار ومن نقَّاد للشعر لا يستطيع قول الشعر. وكذلك كان النبي (صلى الله عليه وسلم) قد انتقد الشعر ونبَّه على بعض مزايا فيه، وفضّل بعض الشعراء على بعض، وهو مع ذلك لا يقرض الشعر، كما يقرر المفسرون قديمًا وحديثا.

لقد حسم القرآن الكريم صلة النبي الخاتم (صلى الله عليه وسلم) بالشعر إنشاءً وإنشادً وتذوقًا وتوجيهًا، فنفى الإنشاء للشعر والإبداع له عن الرسول الكريم نفيًا قاطعًا؛ تنزيهًا لشخصه العظيم، وتنزيهًا للقرآن الكريم، وحفظًا له من الظنون المشوِّهة والشكوك المشوِّشة. وينبغي ألا يُفهَم هذا النفي فهمًا خاطئًا، ويؤدي إلى نتائج منافية للفهم الصحيح، أو مُجافية للحقيقة الجلية، كما يقول الدكتور «شوقي رياض»، في كتابه «الشعر في السيرة النبوية». قال الحافظ ابن حجر: «وأما الشعر فكان نظمه محرّمًا على الرسول (عليه الصلاة والسلام) باتفاق. قال الله عز وجل: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ}»...

إن نفي إبداع الشعر عن الذات النبوية لا يعني موقفًا سلبيًّا من الشعر والشعراء؛ فالرسول الكريم كان من أفصح العرب، وقد جمعت له أسباب البلاغة وأُوتي من البيان منزلة رفيعة فكلامه يأتي بالمنزلة التالية لكلام الله عز وجل. وبذلك تضافرت لديه مقومات الذوق الرفيع، الذي يميز به جيد الكلام من رديئه، ويستشعر به جميل القول من قبيحه، والشعر من فنون القول التي استوعبت الكثير من آيات الإبداع الشعري، بل هو عند العرب الفن الرئيس الذي صبوا فيه كل طاقات فصاحتهم وبلاغتهم وإبداعهم، فليس غريبًا – إذًا - أن يكون له في نفس النبي الكريم موقع إعجاب وتأثير. ويقرر هذه الحقيقة الجليلة الخليل بن أحمد (ت 170 هـ) بقوله: «كان الشعر أحب إلى رسول الله من كثير من الكلام، ولكنه لا يتأتَّى له»... وتتوارد كثير من الروايات والأخبار والآثار التي تُبيّن تلك العلاقة الوطيدة بين الرسول الكريم والشعر حبًّا للحسن منه، وتقديرًا له، وإقبالاً على سماعه، وتبصّرًا بالجيّد منه وإعلانًا عمَّا فيه من قيم سامية، ورفضًا للقبيح منه، الذي فيه نزعات جاهلية مرفوضة، وتعبيرات شيطانية محاربة وغير مقبولة في المجتمع المسلم الجديد الواعد، وكذلك كان شأنه (صلى الله عليه وسلم) مع بعض النصوص النثرية.

ومن توجيه النبي (صلى الله عليه وسلم) لغرض الفخر إسلاميًّا ذلك الموقف النبوي الشريف مع النابغة الْجَعْدِيِّ، حيث روي عن النابغة قال: «أتيت النبيَّ (صلى الله عليه وسلم) فأنشدته قولي:

بلغنا السماء: مجدُنا وجدودنا

وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

قال النبي (صلى الله عليه وسلم): أين المظهرُ يا أبا ليلى؟ قلت: الجَنَّةُ، قال: أَجَلْ إن شاء الله». فجلي أن البيت يحتمل النزعة الجاهلية في الفخر، فجاء السؤال النبوي وعظًا للشاعر ولفتًا لانتباهه حتى لا يعود إلى ماضيه في التعبير أو التفكير من كبر زائف أو فخر خيالي غير واقعي، ومن ثم جاءت إجابة الشاعر - لما أحس الغضب في السؤال النبوي - قاطعة، دالة على أنه فخر إسلامي معتدل متوجّه وجهة أخروية طيبة فيها إيمان بالغيب. ثم كان تعليق الرسول الكريم على إجابة الشاعر - بعد أن اطمأن إلى أنه حين عبّر بمجد جدوده المتطاول قد انتهى إلى التطلع في ظل الإسلام إلى ما هو أعظم - مقررًا قيمة الاعتدال، وحاثًّا على الحرص على كل ما هو أخروي. قال: «ثم قال: أَنْشِدْنِي، فأنشدتُهُ قولي:

ولاَ خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ
بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا
وَلاَ خَيْرَ فِي جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ
حَلِيمٌ إِذَا مَا أَوْرَدَ الأَمْرَ أَصْدَرَا

قال النبي (صلى الله عليه وسلم): أَحْسَنْتَ، لاَ يَفْضُضِ اللهُ فَاكَ».

فعبارته (صلى الله عليه وسلم): «أَحْسَنْتَ»، جامعة للإحسان في جمال اللفظ وحُسْن سَبْكِهِ وإيقاعِهِ، وفي معناهُ البارِعِ أيضا، وهذا ما لا يخفى في هذه الأبيات التي تنضح بالبَهَاءِ الشعري على نحو لا يُدْفَع. والعبارة النبوية تدل على ارتياح إلى ما يُسمع من وحي الروح الدينية، ومن التوجيه الخُلُقي الرشيد...

وهكذا نجد الرسول الكريم يقف موقفًا رائعًا من الشعر فيه إيجابية ووسطية مقبولة محمودة؛ فهو تارة لا تعجبه لفظة فيها روح الجاهلية، وتارة أخرى يشير إلى عمق فهمه لمراد الصحابي الشاعر، وتارة ثالثة يعجب بشعر الصحابي لما فيه من تحديد لخيرية الحلم ونفعيته تحديدًا ينطلق من ثوابت الإسلام، ومنطوق نصوصه. ومن ثم جاء النقد الأدبي في عصر صدر الإسلام في تربة صالحة توجه رسالة الشعر في إطار الإسلام «فالجو الإسلامي في ذراه متمثلاً في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تتفتح في أحضانه المواهب الشعرية وتتفتح بتفتحها ملكات النقد، ويقف الإسلام من وراء ذلك عاملاً أساسيًّا يستلهمه الشعراء وينهلون من نبعه الشعر الفياض، ولا يدخر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وسعًا في تقويم الشعر الذي بقي فيه أثَرةٌ من عصبية أو ظلت فيه بعض الرواسب التي تضرب بجذورها للإسلام.

ثم أصبحت مواقف النبي الكريم وتوجيهاته للأدب والأدباء فيما بعد أساسًا بنى عليه كثير من الخلفاء والعلماء والمهتمين بالشعر والنقاد العرب نظرية عربية إسلامية أصيلة في ميدان النقد الأدبي، منطلقين من أن الأدب كلام، ومن الكلام حسن جميل مقبول، ومنه سيء خبيث مرذول، والتمييز بين النوعين لا يخفى على عاقل. وتزداد نظرة الإسلام إلى الشعر وضوحًا في موقف الخلفاء الراشدين من الشعر والشعراء، وهي نظرة مستمدة من الاتجاه الديني الذي وضع أسسه القرآن الكريم وطبقه الرسول (صلى الله عليه وسلم) في توجيه الأدب وتهذيبه وتقويمه.

وهكذا ينطلق الرسول (صلى الله عليه وسلم) وخلفاؤه الكرام منطلقًا إسلاميًّا واضح المعالم، بيّن القسمات، مستمدًّا من نور القرآن وما يدعو إليه من مكارم الخلاق وجميل الخلال، فلا يعري الشريفة أو يرمي العفيفة، ويقر على نفسه بالفضيحة، ويبتعد عن الهجاء فإنه يحنق به كريمًا ويستثير به لئيمًا. والمدح كسب الوِقاح وطُعْمة السؤَّال، وافخر بمفاخر قومه، وليقل من الأمثال ما يزين به نفسه وشعره ويؤدب به غيره».

فللأدب إذًا رسالة إنسانية نبيلة تعلو به وتجعله في مصاف الكلام الطيب الذي يرفعه الله، والذي هو كالشجرة الطيبة وصدق الرسول الكريم الذي قال: «إنما الشعر كلام مؤلف، فما وافق الحق فيه فهو حسن، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه». وفي رواية: «الشعر كلام، حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيحه». فلا ريب في أن الشعر طاقة فنية فعّالة، كان ديوان العرب في جاهليتهم، وسجلّ مفاخرهم ومُنتهى علمهم، به يأخذون إليه يصيرون. إنه كما قال الشاعر الجاهلي:

والشعر لب المرء يعرضه
والقول مثل مواقع النبل

فللشعر - بفكره العميق وصياغته البديعية - فعل السحر في النفوس. وقد كان كذلك في عصر صدر الإسلام، إذ خاض - إلى جوار النثر - معركة التحدي التاريخي بين نصراء الإسلام وخُصَمائه، عندما استحرَّ الخلاف العقَدي بين الفريقين... وأخذ صوت التوحيد يتعالى على ألسنة الشعراء، وتدفق الحس القرآني، فلون نبض الإبداع الشعري بعبَق التعالي وطهارة الإلهام، وانتشر الشعر المسلم في كل بيت، حتى قال جابر بن سمرة (رضي الله عنه): «جالست النبي (صلى الله عليه وسلم) أكثر من مئة مرة، فكان أصحابه يتناشدون الشعر، ويتذاكرون من أمر الجاهلية، وهو ساكت، فربما يبتسم معهم»، وقال عبد الله بن الزبير (رضي الله عنهما): «ما أعلم رجلان من المهاجرين إلا قد سمعته يترنم»، وقال أنس (رضي الله عنه): «كنا على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وما بالمدينة بيت إلا يقول الشعر»، وقالت عائشة (رضي الله عنها) لعروة: «الشعر منه حسن، ومنه قبيح، خذ بالحسن ودع القبيح. ولقد رويت من شعر كعب بن مالك أشعارًا، منها القصيدة، منها أربعون بيتًا، ودون ذلك».

وروى الإمام البخاري قال: «حدثنا إسحق قال: حدثنا محمد بن الفُضَيْل عن الوليد بن جميع عن أبي سلمة بن عبد الرحمان، قال: لم يكن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مُنْحَرِفِينَ ولا مُتَمَاوِتِينَ، وكانوا يتناشدون الشعر في مجالسهم، ويذكرون أَمْرَ جاهليتهم، فإذا أُرِيدَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الله دَارَتْ حَمَالِيقُ عَيْنَيْهِ كَأَنَّهُ مَجْنُونٌ».

وروى الإمام الترمذي قال: «حدثنا علي بن حُجْرٍ، أَنْبَأَنَا شَرِيكٌ، عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة (رضي الله عنه) قال: جالست رسول الله (صلى الله عليه و سلم) أكثر من مائة مرة، وكان أصحابه يتناشدون الشعرَ ويتذاكرون أشياء مِنْ أَمْرِ الجاهلية، وهو ساكِتٌ، وربما تَبَسَّمَ مَعَهُم»، فهذه المجالس تضم أكمل الخلق، محمدًا (صلى الله عليه وسلم)، و أَفْضَلَ ما في هذه الأمّة، صحابته رضي الله عنهم، وهم أعلم الناس بكلام العرب، وبالضوابط الشرعية التي عَلَّمَهُمْ إياها رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وبالتالي فَلُغَةُ المجلس أَنْظَفُ لغة وأصفاها وأضبطُها، و مع ذلك، فهم يتكلمون في أمر الجاهلية ويتناشدون أشعارها ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) يتابع بحرص المعلم الأمين ما يَتَفَوَّهُ به أصحابه، لأن أقوالهم وأفعالهم في حضرته (صلى الله عليه وسلم) تشريعٌ لِمَنْ بَعْدَهُمْ في هذه الأمة، وربما يعجبه (صلى الله عليه وسلم) هذا البيت، أو تلك الحادثة، فيتبسم (صلى الله عليه وسلم)؛ إنه حقاً لفرقٌ كبير بين هذا المجلس الزَّكِيّ الطاهر، وبين مجالس اللهو والقَصْفِ والخلاعة التي تُتَنَاشَدُ فيها الأشعارُ الجاهلية وأحاديثُها بما فيها من فِسْق ومجون، وبالتالي شَتَّانَ بين شعر جاهلي يُنْشَدُ في ذَلك المجلس الطاهر، وبين هذا الذي يُنشد في هذا المجلس الفاجر.

يقول سيدنا عمر (رضي الله عنه): «خير صناعات العرب أبيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته، يستميل بها الكريم، ويستعطف بها اللئيم»، ويقول سيدنا عمر (رضي الله عنه) لأبي موسى الأشعري: «مُرْ مَن قبلك بتعلم الشعر؛ فإنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب».

وهذا يجسد بوضوح ذلك البعد الإنساني العميق في النظرة النبوية الشريفة إلى الشعر، فهي تأخذ من الإبداع الجاهلي ما يعبّر عن الإنسان البريء، الناطق بالحكمة المعبّرة عن مشاعر الإنسان وخَلَجَاتِهِ بما هو إنسان، و ليس بالكلام البذيء الذي يحط من هذه الإنسانية ذاتها إلى مدارك الحيوان الْمُمَجِّدِ للشُّذُوذِ واللَّذَّةِ والْخَطِيئَةِ، أو التي تقدس الحجر فَتَعْبُدُه من دون الله عز وجل؛ و كأني بمجلس رسول الله (صلى الله عليه و سلم) وهو يقوم بعملية التصفية للإرث الشعري العربي، فيأخذ منه ما يتلاءم مع الشعور الإنساني النبيل وذوقه الفطري السليم، وينبذ ما يتعارض مع دينه وإنسانيته، وهذا ما يحيل عليه قول جابر بن سمرة (رضي الله عنه): «فإذا أُرِيدَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الله دَارَتْ حَمَالِيقُ عَيْنَيْهِ كَأَنَّهُ مَجْنُونٌ»، فكل ما يتعارض مع دين المسلم أو يطعن فيه من إبداع مهما كانت طبيعته، يظل إبداعًا مرفوضًا، حتى و إن صدر عمّن يدّعي بأنه مسلم فضلا عن سواه، لأن ما يعارض الدين الإسلامي، يعارض بالضرورة الفطرة الإنسانية.

فالإبداع العربي قبل الإسلام هو إنتاج إنساني، فيه الغَثُّ والسمين والطَّيِّبُ والرديء، فليس من العدل أن يقاس كله بمقياس واحد، وأن يُهْمَلَ كلُّه بحجة أن قائله ليس بمسلم، لا، لأن عظمة الإسلام تكمن في تهذيب الإنسان وإصلاحه وتكريمه، وليس في هدمه وتحطيمه، وأولى هذه الجوانب استدعاءً لهذا الإصلاح وذاك التهذيب، بعد تصحيح عقيدته وتنقيتها، هو فكره و ثقافته، فما كان من إبداعه فطريا وإنسانيا لا يصادم الحق ولا يضاد العقيدة الإسلامية، وَجَبَ احتضانه وتزكيته مهما كان قائله، لأنه أَوَّلاً وقبل كل شيء هو إنسان له أحاسيسه وعواطفه التي أودعها الله عز وجل فيه، ليعبّر بها عن فطرته وإنسانيته في إبداع يُؤْخَذُ منه ويُتْرَكُ، ويُقْبَلُ منه و يُرَدُّ، وهذا هو هَدْيُ محمد (صلى الله عليه وسلم)، وهَدْيُ صحابته رضي الله عنهم، وهَدْيُ من تبعهم بإحسان.

فما أجمل أن نوظّف الأدب شعرًا ونثرًا في تربية الأجيال القادمة تربية هادية بانية نافعة واقية، بدل هذا الغثاء الشيطاني الذي يُقدّم لهم وإن شئت قل: يُفرض عليهم فرضًا، ويُدسّ لهم من خلاله كل سمّ وكل زيف وكل ضلال وكل إضلال! وما تاهت أجيال العرب خلال هذا العصر الحديث البائس إلا من خلال النصوص الأدبية المنحطة الهابطة الداعرة في فنون القصة القصيرة والرواية والمسرحية، والأغنية الشعبية والشوارعية! وعبر توظيفها في الدراما مسرحيًّا وسينمائيًّا وتلفازيًّا وإذاعيا!

العدد 5607 - الخميس 09 أكتوبر 2025 م الموافق لـ 17 ربيع الثاني 1447 هـ
https://elayemnews.dz - @elayemnews
الأيام NEW

علم النفس للأدب كالملح للطعام

الدكتور عبد الوهاب برانية
الأستاذ بجامعة الأزهر - مصر

قد يتبادر إلى الذهن سؤال: هل هناك علاقة بين علم النفس والأدب؟

ربما يقول قائل: وما حاجة الأدب إلى علم النفس؟ وما ارتباطه به؟ وهذا القول إن صدر عن واحد من الناس، فقائله عرضة للاتهام في ثقافته وتفكيره؛ فالأدب وعلم النفس إنما ينبعثان من مشكاة واحدة، فالباحث النفسي يعتمد الخيال والعاطفة والغرائز الإنسانية كظواهر أساسية في تشكيل العقل البشري وضبط توازنه، وتمييز الناس فيما بينهم وفق معطيات تلك الظواهر، والأديب شاعرًا كان أو كاتبًا، إنما يتغنّى بعواطفه ومشاعره وأحاسيسه، التي تملك عليه وجدانه، وينقل تلك المشاعر إلى الآخرين، حاملة رؤيته للحياة والأحياء، عبرَ فنّه الأدبي الأثير لديه، شعرًا كان أو قصة أو مسرحية أو أيّ لون إبداعي، راح يجد نفسه من عشاقه وموهوبيه.

ويأتي دور علم النفس تجاه الأدب، في أنه قد يساعدنا كما يقول الدكتور «محمد مندور»: «في فهم نفسية الكُتَّاب وتحليل الشخصيات الروائية التي يخلقها أولئك الكتاب، ولكنه قد يضللنا أيضًا في ذلك الفهم وهذا التحليل... فاستخدام علم النفس في نقد الأدب يجب أن يتمّ في حذر، لأنك بذلك قد تذهب بالأصالة الموجودة في العمل الأدبي، فتفهم الشخصية الروائية مثلا، أو تحليل نفسية الشاعر على ضوء قوانين نفسية عامة لا يصدق إلا في التخطيطات العامة، وذلك لأن النفس البشرية يستحيل أن تتطابق تطابقًا تامًّا». (في الأدب والنقد ص 39 – 40).

فعلم النفس يقوم بدور كشفي مهم، حين يفسر الظواهر الأدبية من خلال واقع ملموس، بلا إفراط ولا تفريط، دونما نضوبٍ أو إغراق، فالحكم على الظواهر الأدبية والأدباء منْ خلال قواعد نفسية عامة، واستخلاص الأحكام والمسلّمات من خلال الاستنتاج، الذي قد يكون مجرد حدس أو تطبيق لنظرية نفسية، قد لا تنطبق إلا على حالات خاصة من البشر، ولا تصلح لتعميمها على كل ما يشبهها من الحالات؛ فالبشر متفاوتون في السلوك والدوافع إليه، وتعميم الأحكام عليهم فيه كثير من التجوز وعدم الدقة؛ مما ينبئ بعدم سلامة الطرح من الخطأ، والوقوع في براثن الوهم، غير المبرر.

وأمام القارئ المثقف أنموذج من «أبي نواس»، الشاعر العباسي، فقد دارت حول شعره وشخصيته دراسات عديدة، منها دراسة الأستاذ «العقاد» (أبو نواس الحسن بن هانئ) حيث طبق نظريات علم النفس على الشاعر وشعره، وأفرط في التوغّل في التفاصيل النفسية التي ربما ينطبق بعضها على الشاعر، ومن المؤكد أن بعضها يرتبط بظروف المجتمع وطبيعة الحياة في ذلك العصر، من ذلك أن «العقاد» وضع مجمل شعر «أبي نواس» في الغزل ووصف الخمر والتغني بعشقها وتصوير حياته الماجنة بلا تحفظ، وضع «العقاد» ذلك كله في (لازمة العرض) التي تشمل الإظهار بكافة درجاته، بدعوى أنّ الشاعر قد عمد إلى التمتّع بالمحرّمات والجهر بها، والدعوة إلى اقترافها، والتشجيع عليها وذلك في مثل قوله:

وإن قالوا حرام قل حرامٌ -- ولكنّ اللذاذةَ في الحرامِ

وقوله:

ألا فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمرُ
ولا تسقني سرًّا إذا أمكن الجهرُ
فما العيش إلا سكرةٌ بعد سكرةٍ
فإن طال هذا عنده قَصُرَ الدَّهرُ

فـ «العقاد» يرى أنّ ما يقوم به «أبو نواس» من الجهر بالمحرّمات ما هو إلا محاولة الظهور وعرض شخصيته، ليسدّ بذلك حاجة نفسيّة في داخله، كما يقول المثل: «خالِف تُعرَف».

ولكن إفراط الأستاذ «العقاد» في تطبيق اللوازم النفسية، والبحث عن أصولها عند «أبي نواس»، والربط بين مظاهره الخِلْقِية وشذوذه، كعلم وظائف الأعضاء وارتباطه بهرمونات الأنوثة والذكورة، كل ذلك جعل الأستاذ «العقاد» يغفل طبيعة المجتمع، الذي عاش فيه «أبو نواس»، ولم يوله الاهتمام المستحق؛ لأن جلّ اهتمامه كان منصبًّا على ما ذكرنا، مع أن تلك الحقبة كانت تضجّ بألوان البذخ وصنوف الترف والمجون، وليس من الضروري أن يكون الدافع وراء تلك المجاهرة بمثل هذه المحرمات راجعًا إلى شذوذ جنسي، أو اختلال في الغدد لدى صاحبها، بل ربما كان ذلك بسبب نقصٍ مَّا لدى الشخصية، أو انعدامٍ للتربية، أو مخالطة وسطٍ يشجع على مثل تلك السلوكيات، التي لا تراعي للدين حرمة ولا للمجتمع أصولا وأعرافًا.

وبينما وجدنا الأستاذ «العقاد» يفسر ظاهرة الشذوذ لدى «أبي نواس»، وفق ما تمليه نظريات علم النفس، والفكرة النرجسية التي انتابته، وأثّرت في سلوكياته وأشعاره، وجدنا أيضًا دارسًا آخر هو الدكتور «محمد النويهي» في كتابه عن «نفسية أبي نواس» ينطلق من وجهة أخرى في تفسير حياة الشاعر وشعره، معتمدًا على «عقدة أوديب»، التي تنهض على فكرة تعلّق الطفل بأمّه، ومحاولته الاستئثار بها، إذ يرى الدكتور «النويهي»، والكلام للدكتور «طه حسين»، أن النواسي الطفل: «أحب أمّه وكلف بها كلفا بلغ الهيام، وحيل بينه وبين غايات هذا الحب فأدركه ما أدركه من هذه العلة التي أفسدت عليه أمره كله، وحولته عن الجادة إلى الطريق الملتوية في الحب».

فانظر يا قارئي العزيز كيف أخذت النظرية النفسية قامتين مثل العقاد والنويهي إلى افتراض أن الشخصية المدروسة شخصية معقدة، وكيف أنهما راحا منذ البداية إلى النهاية يدوران في فلك تلك الفكرة ويحاولان إثباتها والانتصار لها، مغفلَينِ - في الغالب - طبيعة البيئة والمجتمع والحياة في عصر الشاعر؛ مما حدا بالدكتور «طه حسين» إلى انتقاد منهج الناقدين معا في مقالة أدرجها ضمن كتابه «خصام ونقد» وحملت عنوان «بؤس أبي نواس» حيث رأى ما فحواه أن المنهج النفسي له دارسوه ومتخصّصوه، وأن مجاله الحقيقي في المعامل والتجارب على الأحياء، وحين يقوم بهذا الدور نقاد الأدب فإنما ينقلون إلينا نظريات وأفكارًا، قد لا تصلح لتطبيقها على الأموات ومن ليس تحت أيدينا تقارير طبية ونفسية، بناء على فحوص أجريت لهم واستخلصت النتائج من خلالها، حينئذ يكون التحليل النفسي قائمًا على أسس وثوابت، لا على فرَضيات ونظريات غير قابلة للتطبيق إلا على أفراد، مِن قبيل مَن خضعوا للفحص والتجربة، لا عموم الناس.

ولما كانت دراسة الأدباء - أحياء وأمواتًا - وإخضاعهم للدراسات النفسية، لا تأتي في الغالب بنتائج حقيقية، يمكن اعتمادها في الحكم على الأدباء ونتاجهم، لما كان الأمر كذلك، وجدنا أن اعتماد تلك المناهج في الدراسات الأدبية لا يحظى باهتمام كثير من الأوساط الثقافية؛ لعدم التخصص من ناحية، ولأن غالبية تلك المناهج تنطلق في تفسيراتها للظواهر من تفسير جنسي لدى الأدباء، مما يعدّه البعض إقحامًا لسلوكيات سلبية، لا تسلم من محاولة تقليدها والتأسّي بها، وبالتالي، فإن أصحاب هذه الرؤية، يرون أن التحليل الفني للنص الأدبي يكفي لفهمه وبيان الدوافع، التي صبغت أدبه بلون معين، وأخذته إلى وجهة مَّا دون غيرها من الوجهات الأخرى.

ولكن.. هل معنى ذلك: أن على دارسي الأدب ونقّاده إهمال الجوانب النفسية في دراسة الأدب والأدباء؟ والجواب عن ذلك بالنفي قطعًا، فالنقد الأدبي لا يعيش بمعزل عن المناهج المختلفة، ولكن يفيد منها بمقدار ما يضيف إليها، ويسلط الضوء على ظواهرها ويبرز دوافعها وأسبابها، بشكل متوافق مع منطق الأحداث وتراتبها، بلا إغراق في المبالغة والتفسيرات العميقة التي تجافي الواقع وتباين الحقيقة، فمثلا عند تناول ظاهرة وصف الليل لدى بعض الشعراء كامرئ القيس والنابغة والعباس بن الأحنف مثلا، نجد أن جميعهم يشتركون في وصف الليل بالطول والتمدد والجثوم الطويل والإثقال على النفس، فامرؤ القيس يصفه قائلا:

وليلٍ كموج البحر أرخى سُدُولَهُ -- عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تَمَطَّى بصُلبِهِ -- وأردف أعجازا وناءَ بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي -- بصبح وما الإصباح منك بأمثلِ
فيا لك من ليل كأن نجومه -- بكل مُغَارِ الفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ
كأن الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ في مَصامِهَا -- بأمراسِ كِتَّانٍ إلى صُمِّ جَنْدَلِ

والنابغة يقول:

كليني لِهَمٍّ يا أميمة ناصبِ -- وليلٍ أقاسيه بطيءِ الكواكبِ
وصدرٍ أراح الليلُ عازبَ همِّهِ -- تضاعف فيه الحزن من كل جانبِ
تقاعسَ حتى قلت ليس بمنقضٍ -- وليس الذي يرعى النجومَ بآيبِ

والعباس بن الأحنف يقول:

أيها الراقدون حولي أعينو -- ني على الليل حسبةً وائتجارا
حدثوني عن النهار حديثًا -- أو صفوه فقد نسيتُ النهارا

فالشعراء الثلاثة جميعهم يعبّرون عن استثقال الليل وجثومه وامتداده.

فعلى الباحث الأدبي ألّا يقف عند حدود التفسير اللغوي للنص، والتحليل الفني لمعطياته الأسلوبية والموضوعية، وإنما عليه أن يبحث في الدوافع التي تكمن وراء تلك النظرة إلى الليل، فامرؤ القيس كانت تلاحقه فكرة الثأر لمقتل أبيه، وتنغّص عليه حياته وتؤرّق منامه، والنابغة كان غضب النعمان بن المنذر عليه، وهو مليكه المُحبّب، من وراء تلك الصور التي رسمها الشاعر لليل، والعباس بن الأحنف كان عشقه وغرامه وصدّ محبوبته عنه شغله الشاغل، الذي أطال بقاء ليله، وأيأسه من نهار، يكون فيه خلاصه من الهموم الجاثمة الطاغية.

حين يبحث الناقد عن مثل تلك الدوافع الاجتماعية، وما تسبّبه لأصحابها من ضغوط نفسية، مستخدما منهج التحليل النفسي يكون قد جعل الأدب يضيء من مشكاة المنهج النفسي، بما يكشف له عن الدروب المظلمة والسبل المعتمة، بمقدار ما يعبر تلك الطرق آمنًا مطمئنًا.

ولو أنه أوغل في مصطلحات المنهج النفسي وأوغل في تطبيق نظرياته، ربما لم يسلم من الخطأ؛ إذ إن تعميم تلك المعطيات النفسية على كل من تتشابه ظواهرهم خطأ فادح، وإلا قل لي رأيك في تجربتي الخاصة مع الليل، بما يخالف فحول الشعراء الذين شكوه للقاصي والداني، بينما أنا أراه على خلاف ذلك وفيه أقول:

آه يا ريف يا جمال الدُّنَى -- فيك ليل لو يشترى أشتريهِ
فيك سحرٌ هاروته مبدعٌ -- سحرُهُ صادقٌ ولا إثمَ فيهِ
أيها الليل أنت لي مُسْعِدٌ -- وصديقٌ مَحَبَّبٌ أصطفيهِ
كم من الهَمِّ قد أزحتَ إذا -- أثقل الهمُّ بالمصاب الكريهِ
وقديما حُمِّلْتَ ثُقْل الجَوَى -- ذاك ظلمٌ يا ليلُ ما أرتضيهِ
بلسمٌ أنت لم تزل آسيًا -- جُرحَنا مطفئًا لظَى نكتويهِ
ما شكوناك يا صديقُ فلَمْ -- نلقَ من ليلنا أذًى نشتكيهِ

دراسة في شخصية القائد «أتيلا الهوني»..

العامل النفسي في صعود وسقوط الأمم

بدر شحادة

(باحث في الشؤون التاريخيّة والاستراتيجية من لبنان)

لا شكَّ أنّ العامل النفسي يُشكّل أحد الركائز الأساسية في بناء المجتمع وتوجّهه، إذ ينعكس مباشرةً على سلوك الأفراد، وتكوين الأجيال، واستقرار العلاقات الاجتماعية. فالمجتمع لا يُبنى بالقوانين فحسب، بل بالنفسيات التي تُسهم في صياغة أنماطه الفكرية والتربوية، وفي تشكيل ضميره الجمعي. ومن هنا تأتي أهمية دراسة أثر العوامل النفسية في تطوّر المجتمعات، واستحضار النماذج التاريخية التي تجسّد هذا التأثير، ومن أبرزها شخصية «أتيلا الهوني»، أحد أكثر القادة إثارةً للجدل في التاريخ القديم.

أولاً: أثر العامل النفسي في تكوين المجتمعات

يدخل العامل النفسي إلى حدٍّ كبير في تسيير المجتمع، سواء على صعيد التربية أو العلاقات الاجتماعية، ويُعدّ أحد المحدّدات الخفيّة لمسار التطوّر الاجتماعي والحضاري. فالنشأة ضمن ظروفٍ نفسيّةٍ قاهرة - كالحرمان، أو الحروب، أو الاضطرابات البيئية - تترك بصمتها العميقة في الأجيال اللاحقة، فتكوّن لديهم أنماطًا من الصبر والصلابة، أو على العكس، الرفض والتفلّت من القيم والأطر المجتمعية.

وتُجمع الدراسات النفسية على أنّ الإنسان في مراحل تشكّل شخصيته يعتمد على المحاكاة، متأثرًا بمن هم في مستوى ثقافي مماثل، أو من ذوي التأثير الاجتماعي والعلمي الرفيع. فالنماذج البشرية التي تُحيط بالفرد - سواء كانت رموزًا تربوية أو سلطات فكرية أو سياسية - تُسهم في بناء صورة «الأنا» وتوجّه السلوك الجمعي لاحقًا.

وعلى امتداد التاريخ، يظهر أن العوامل النفسية - أكثر من المادية أحيانًا - كانت قادرة على هدم الأمم حين يسودها جنون العظمة، كما كانت قادرة على بناء الحضارات حين يسودها الإيمان والصبر والتكامل الداخلي.

ثانيًا: «أتيلا الهوني» أنموذجًا تاريخيا

1. نبذة تاريخية

يُعدّ «أتيلا الهوني» (Attila the Hun) أحد أشهر القادة العسكريين في التاريخ الأوروبي القديم، وقد حكم قبائل «الهون» ما بين عامي 434 و453 م. بسط سلطانه على أجزاء واسعة من أوروبا الوسطى والشرقية، وامتدّ نفوذه إلى الإمبراطوريتين الرومانية الشرقية والغربية.

قاد حروبًا طاحنة ضد الرومان، أشهرها معركة «كاتالونيان» سنة 451 م، وغزا إيطاليا عام 452 م، ودخل مدنًا كميلانو وأكوينيا قبل أن يتراجع بعد مفاوضات دبلوماسية مع البابا ليو الأول.

توفي «أتيلا» عام 453 م في ظروف غامضة ليلة زفافه، لتنقسم بعد موته قبائل «الهون» وتنهار إمبراطوريته سريعًا، ما يدلّ على أن نفوذها كان قائمًا على قوّة شخصيته الفردية لا على مؤسسات راسخة.

2. قراءة نفسية في شخصية «أتيلا»

إن دراسة شخصية أتيلا من منظور علم النفس التاريخي والاجتماعي تتيح فهمًا أعمق لتأثير الفرد في حركة التاريخ، إذ تتداخل السّمات الفردية مع الظرف السياسي والثقافي العام.

- الطموح والهيمنة: تشير سيرته إلى شخصية ذات نزوع قوي للهيمنة والتوسّع، لا تكتفي بالسيطرة العسكرية بل تسعى إلى فرض تصورها الذاتي للعظمة. هذا السلوك يمكن ربطه بما يُعرف في التحليل النفسي الحديث بـ «النزعة السلطوية» أو عقدة السيطرة، التي

تدفع صاحبها إلى توسيع دائرة نفوذه بلا حدود واضحة.

- الازدواج بين العنف والسياسة: رغم اشتهاره بالقسوة، أظهر «أتيلا» براعة دبلوماسية عالية في عقد المعاهدات والمفاوضات، ما يكشف عن ذكاء تكتيكي وقدرة على ضبط الانفعالات حين تقتضي المصلحة ذلك.

إن الجمع بين الشدة والمرونة يدل على شخصية تدرك قوانين القوة النفسية، وتوظفها في إخضاع الآخرين عبر الرهبة قبل السلاح.

- الشعور بالعظمة والقدرية: لُقّب «أتيلا» بـ «سوط الله» (Scourge of God)، وهو لقب أطلقه عليه خصومه الرومان، لكنّه تبنّاه ضمنيًّا في خطابه وسلوكه، ما يُظهر إحساسًا بالاصطفاء التاريخي، وشعورًا بأنه أداة إلهية للعقاب أو التغيير. وهذا يعكس نمطًا قريبًا من اضطراب العظمة (Megalomania)، حيث يُبالغ الفرد في تقدير ذاته ودوره في التاريخ.

- الكاريزما والتأثير الجمعي: نجاحه في توحيد القبائل المتناحرة تحت رايته يُظهر كاريزما قيادية قوية، وقدرة على استثمار الرموز والخوف لتثبيت السلطة. هذا النمط من القيادة يعتمد على التحفيز النفسي السلبي (الخوف، التهديد، الغموض)، وهو ما جعل حكمه سريع الصعود وسريع الانهيار في آنٍ واحد.

ثالثًا: العلاقة بين النفس والقيادة الاجتماعية

إن شخصية «أتيلا» تمثل مثالًا واضحًا على كيف يمكن للبنية النفسية للفرد القائد أن تؤثّر في مسار التاريخ.

فالزعيم الذي تحركه دوافع العظمة أو مشاعر القهر، يعكس على المجتمع كله حالة نفسية جماعية قد تدفعه إمّا إلى نهضة قصيرة الأمد أو إلى دمار شامل.

ومن هنا تبرز ضرورة دراسة الدوافع النفسية في القيادة والسياسة، لأن الأمم لا تُقاد بالقرارات وحدها، بل بالعواطف، والمخاوف، والإيحاءات التي يبثها القائد في وعي الناس ولا وعيهم.

الخاتمة

يتضح أن العوامل النفسية تُعدّ عنصرًا حاسمًا في تشكيل الأفراد والمجتمعات على حدٍّ سواء. فكما قد تبني شخصية متّزنة حضارةً راسخة، قد تهدم أخرى أممًا بكاملها.

ويُعدّ «أتيلا الهوني» أنموذجًا صارخًا لتجلّيات النفس على مستوى القيادة؛ حين تنفلت من ضوابط القيم والاتزان، فتغدو قوةً مدمّرة بقدر ما هي ملهمة.

إنّ دراسة مثل هذه الشخصيات لا تهدف إلى الإدانة أو التمجيد، بل إلى فهم الآليات النفسية التي تؤثّر إلى حدٍّ كبير في المَسَارِ التاريخيّ للأمم.

التربية النفسية.. أي ضرورة في حياة الفرد؟

سامر المعاني

(كاتب من الأردن)

التربية النفسية هي عملية تعليمية تهدف إلى تطوير مهارات الفرد النفسية والعاطفية، وتعزيز قدرته على التعامل مع التحديات والضغوط اليومية. في ظل التحديات المتزايدة التي يواجهها الأفراد في حياتهم اليومية، أصبحت التربية النفسية ضرورة حتمية لضمان صحة نفسية جيدة وتحقيق التوازن بين الجوانب النفسية والجسدية.

الحاجة إلى التربية النفسية

ضرورة التربية النفسية مردّه إلى عدة أمور منها:

- تساهم التربية النفسية في تعزيز الصحة النفسية للأفراد، وتقليل خطر الإصابة بالاضطرابات النفسية مثل الاكتئاب والقلق.

- تساعد التربية النفسية الأفرادَ على تطوير مهارات التواصل والتعامل مع الآخرين، مما يعزز العلاقات الاجتماعية الإيجابية.

- تمكن التربية النفسية الأفرادَ من التعامل مع التحديات والضغوط اليومية بفعالية، وتحسين قدرتهم على التكيف مع التغيرات.

- تساهم التربية النفسية في تعزيز الإنتاجية والكفاءة في العمل، من خلال تحسين مهارات إدارة الوقت.

اكتساب التربية النفسية

يمكن اكتساب التربية النفسية في حياتنا من خلال:

- التعليم والتدريب والبحث والتفاعل مع الأخرين.

- من خلال الدراسة الأكاديمية في مجالات علم النفس والتربية الخاصة.

- يمكن الحصول على التدريب المهني في مجالات التربية النفسية من خلال البرامج التدريبية والورش العمل.

- يمكن للأفراد تعزيز معرفتهم ومهاراتهم النفسية من خلال القراءة والبحث الذاتي في مجالات علم النفس والتربية النفسية.

- يمكن للأفراد تعلّم مهارات التربية النفسية من خلال التفاعل مع الآخرين، والتعلم من تجاربهم وخبراتهم.

علاقة التربية النفسية بالأدب

التربية النفسية لها علاقة وثيقة بالأدب، حيث يمكن للأدب أن:

- يمكن للأدب أن يعزز الوعي النفسي للأفراد، ويساعدهم على فهم تجارب الآخرين وخبراتهم النفسية.

- يمكن للأدب أن يوفر نماذج إيجابية للتعامل مع التحديات والضغوط النفسية، ويساعد الأفراد على تعلم مهارات التكيف والمرونة.

- يمكن للأدب أن يعزز التعبير العاطفي للأفراد، ويساعدهم على فهم مشاعرهم وعواطفهم بشكل أفضل.

بين الأدبي العربي والأدب الغربي

حالة الروح وحالة الجسد في التعاطي مع المتاعب والأزمات في الأدب العربي مقارنة مع الأدب الغربي:

- في الأدب العربي، غالبًا ما يتمّ التركيز على حالة الروح والجوانب الروحية في التعاطي مع المتاعب والأزمات. ويمكن رؤية ذلك في أعمال الأدباء العرب الكلاسيكيين مثل «ابن سينا» و«الغزالي»، حيث يتم التأكيد على أهمية الروح والجوانب الروحية في تحقيق التوازن النفسي والجسدي.

- في المقابل، غالبًا ما يتم التركيز على حالة الجسد والجوانب المادية في التعاطي مع المتاعب والأزمات في الأدب الغربي. ويمكن رؤية ذلك في أعمال الأدباء الغربيين مثل «فريدريك نيتشه» و«سيجموند فرويد»، حيث يتم التأكيد على أهمية الجسد والجوانب المادية في فهم السلوك الإنساني والتعامل مع التحديات النفسية.

خلاصة الكلام

إن التربية النفسية ضرورة حتمية في حياة الفرد، ويمكن اكتسابها من خلال التعليم الرسمي والتدريب المهني والقراءة والبحث الذاتي والتفاعل مع الآخرين. وعلاقة التربية النفسية بالأدب وثيقة، حيث يمكن للأدب أن يعزز الوعي النفسي ويوفر نماذج إيجابية ويعزز التعبير العاطفي. حالة الروح وحالة الجسد في التعاطي مع المتاعب والأزمات تختلف بين الأدب العربي والأدب الغربي، حيث يتم التركيز على الروح في الأدب العربي والجسد في الأدب الغربي.

الأيام NEW

منذ 24 عاما
تأسست عام 2000 (أسبوعية)
وتحوّلت إلى يومية عام 2005

العدد 5607 - الخميس 09 أكتوبر 2025 م الموافق لـ 17 ربيع الثاني 1447 هـ

مواقيت الصلاة

	الفجر	الظهر	العصر	المغرب	العشاء
الجزائر	5:24	12:35	15:50	18:23	19:41
وهران	5:41	12:50	16:07	18:39	19:56
قسنطينة	5:11	12:21	15:37	18:10	19:27
الطارف	5:03	12:14	15:29	18:02	19:20

توقعات الطقس

الجزائر	عنابة	سطيف	بسكرة	وهران
26 °	26 °	24 °	30 °	26 °

@elayemnews https://elayemnews.dz

«عمر ياغي» يثبت أن العلم مقاومة..

نوبل ترفع القبعة للعقل الفلسطيني

الحاج عيسى بن معمر

في لحظة بدت وكأنها تسرق النور من عتمة الحصار، دوّى اسم فلسطين من جديد في قلب الأكاديمية السويدية حين أعلنت لجنة جائزة نوبل للكيمياء فوز العالِم الفلسطيني الدكتور عمر ياغي بجائزة نوبل لعام 2025، لتُسجَّل بذلك محطة جديدة في مسيرة العقل الفلسطيني الذي لم يتوقف يوما عن إثبات أن الشعوب لا تُقاس بمساحة الأرض التي تحتلها، بل بمساحة الإبداع التي تشغلها في ضمير الإنسانية. ومع هذا الحدث العلمي العالمي، جاءت كلمات ديمتري دلياني، عضو المجلس الثوري والمتحدث باسم تيار الإصلاح الديمقراطي في حركة فتح، لتلخّص المشهد برؤية أعمق من مجرد فوز علمي فردي، إذ قال إن تتويج الدكتور ياغي هو "انتصار جديد للعبقرية الفلسطينية التي تواجه الجرائم الإسرائيلية بعلمها"، مؤكّدا أن هذا الفوز ليس حدثا عابرا بل دلالة رمزية كبرى على أن المعرفة هي الوجه الآخر للمقاومة، وأن الإبداع العلمي يمكن أن يكون أكثر رسوخا من صخب المدافع.

تصريح دلياني يعيدنا إلى سؤال جوهري طالما طُرح في الأوساط الثقافية والسياسية الفلسطينية: كيف استطاع الشعب الفلسطيني، المحاصر والمقموع منذ عقود، أن يُنتج عقولا قادرة على حصد أرفع الجوائز العالمية؟ هذا السؤال لا يجد جوابه في الجغرافيا ولا في السياسة، بل في بنية الوعي الجمعي الذي صاغته التجربة الفلسطينية ذاتها. فبينما تدمّر آلة الاحتلال كل مظهرٍ للحياة، ظلّ الفلسطيني يزرع المعرفة في الركام، يؤمن أن الكتاب يمكن أن يكون بندقية أخرى، وأن المختبر في جامعةٍ أو في منفى ليس إلا خندقا آخر من خنادق الدفاع عن الهوية.

الدكتور عمر ياغي، الذي أصبح ثاني فلسطيني ينال جائزة نوبل بعد الرئيس الشهيد ياسر عرفات، ليس مجرّد عالم كيمياء بارع، بل هو ابن هذا الوجدان الوطني الذي يؤمن أن كل إنجاز فردي فلسطيني هو في جوهره فعل جماعي مقاوم. ولد ياغي في عمّان عام 1965 لعائلة فلسطينية هجّرتها النكبة من فلسطين المحتلة، ودرس الكيمياء في الجامعة الأردنية قبل أن يسافر إلى الولايات المتحدة حيث بدأ رحلته العلمية التي ستغيّر مسار علم المواد على مستوى العالم.

اشتهر بابتكاره لهياكل الإطارات المعدنية العضوية (MOFs) التي أحدثت ثورة في علم تخزين الطاقة والغازات، واعتُبر أحد أبرز المرشحين للفوز بجائزة نوبل لسنوات قبل أن تتحقق النبوءة أخيرا عام 2025. لكن خلف كل معادلة علمية وإنجاز تقني، ظلّ هناك وطن يسكن الذاكرة ويمنح المعنى لكل ما يقوم به. فكما يقول في أكثر من مناسبة: "العلم لا وطن له، لكن الإنسان الذي يحمله لا يمكن أن ينسى جذوره".

إن استحضار دلياني لاسم الشهيد ياسر عرفات في تصريحه ليس تفصيلا عابرا، بل هو إشارة رمزية دقيقة، تربط بين مسارين متكاملين في التاريخ الفلسطيني: مسار النضال السياسي الذي جسّده عرفات، ومسار النضال العلمي والمعرفي الذي يجسّده ياغي. فبينما حمل الأول البندقية في وجه الاحتلال ليفتح أمام شعبه باب الاعتراف العالمي، يحمل الثاني أنبوب الاختبار ليقول للعالم إن فلسطين قادرة على الإسهام في حضارته، لا أن تكون عبئا عليه. بهذا المعنى، يصبح فوز ياغي امتدادا

طبيعيا لمسيرة وطنٍ يُقاس إنجازه لا بعدد المساحات التي يحررها، بل بعدد القلوب والعقول التي يكسبها في معركة الوجود.

وحين يقول دلياني إن هذا الفوز "يعزّز حضور فلسطين في ضمير البشرية"، فهو لا يتحدث بلغة العاطفة بقدر ما يشير إلى حقيقة موضوعية راسخة: أن صورة فلسطين في الوعي الإنساني لم تعد حكرا على مشاهد الحرب والدمار، بل صارت أيضا صورة العلم والبحث والابتكار. في عالمٍ يتنازع فيه الخطاب الإعلامي بين ضجيج القوة وصوت الضحايا، يأتي إنجازٌ مثل نوبل ليرسّخ أن الشعب الفلسطيني ليس ضحية دائمة بل صانع معنى وقيمة. وهنا تكمن قوة الرمزية في هذا الحدث، إذ أنه يربك رواية الاحتلال التي حاولت طيلة عقود تصوير الفلسطيني على أنه مجرد رقم في تقارير الأمم المتحدة أو مشهد في نشرات الأخبار. الآن، يصبح الفلسطيني عالما تُدرّس أبحاثه في كبريات الجامعات، ويُشاد باسمه في المحافل العلمية الدولية، ويُحتفى به بصفته من روّاد الإنسانية الحديثة.

ولأن فلسطين كانت دائما ساحة اختبار لقيم العالم، فإن فوز ياغي بنوبل يحمل أيضا بعدا أخلاقيا وسياسيا لا يمكن تجاهله. فبينما يستمر الاحتلال في تدمير الجامعات والمكتبات وقصف المدارس في غزة والضفة الغربية، يخرج من بين أبناء هذا الشعب من يعيد للعالم ثقته بالإنسان الفلسطيني وقدرته على العطاء. وهنا تبرز المفارقة التي التقطها دلياني بذكاء حين قال إن "جيش الإبادة الإسرائيلي يدمّر الحياة والمعرفة والتراث، بينما شعبنا الفلسطيني يواصل البناء والإبداع وسط الرماد". فهذه الجملة تختصر فلسفة الصمود الفلسطينية في أن المقاومة ليست فقط مواجهة بالسلاح، بل أيضا رفضٌ للمحو المعرفي والثقافي الذي يسعى الاحتلال إلى فرضه.

إن منح نوبل لعالمٍ فلسطيني في هذا الظرف السياسي الحرج لا يخلو من دلالات رمزية عميقة، إذ يأتي في زمنٍ يُحاصر فيه الفلسطيني في رزقه وأرضه وذاكرته، لكنه ينجح في أن يخترق هذا الحصار من بوابة العلم، ليقول للعالم إن الاحتلال قد يُقيّد الجسد لكنه لا يستطيع أن يعتقل العقل. وربما لهذا السبب اعتبر دلياني أن الجائزة "رسالة أملٍ من فلسطين إلى العالم بأن المعرفة مقاومة"، وهي عبارة تختصر فلسفة مرحلةٍ كاملةٍ من الوعي الفلسطيني الجديد، الذي بدأ يدرك أن النضال الثقافي والعلمي هو سلاح استراتيجي لا يقل أهمية عن النضال السياسي.

من هنا يمكن القول إن تتويج ياغي هو حدث وطني بامتياز، لأنه يعيد رسم ملامح القوة الفلسطينية في ميدانٍ جديد، ميدانٍ لا يمكن لإسرائيل أن تحاصره أو تشوّهه. فالمختبرات لا تُقصف، والمعادلات لا تُغتال، والجوائز العالمية لا تُمنح تحت ضغط الرصاص. إنها مكافأة للعقل الفلسطيني الحرّ الذي يواصل العمل رغم كل القيود، ويُثبت أن إرادة الحياة أقوى من كل أشكال القمع.

لقد ظلّ الدكتور عمر ياغي خلال مسيرته الأكاديمية مثالا للعالم المتواضع المنفتح على طلابه وعلى مجتمعه العلمي، وقد حرص دائما على بناء الجسور بين الشرق والغرب من خلال برامج بحثية مشتركة ومبادرات لتدريب طلاب من الدول النامية في مختبراته. هذه الروح الإنسانية المتجذّرة في تجربته الفلسطينية جعلت فوزه بنوبل يبدو وكأنه انتصار جماعي للعقل العربي والفلسطيني معا، ورسالة إلى الأجيال الشابة بأن الطريق إلى التغيير يبدأ من فكرةٍ صغيرة في مختبرٍ أو مكتبة، لا من قرارٍ سياسي أو صراعٍ عسكري.

من جانبٍ آخر، يثير هذا الإنجاز نقاشا جديدا حول دور النخبة العلمية الفلسطينية في بناء سردية وطنية حديثة. فبينما ظلّ الإعلام لعقودٍ يركّز على البعد المأساوي للقضية، يأتي حدثٌ كهذا ليذكّرنا بأن الفلسطيني ليس فقط من يعيش في ظل الاحتلال، بل هو أيضا من يصنع الإنجازات الكبرى في جامعات العالم. وهنا يتقاطع التحليل السياسي مع الثقافي، إذ يُعيد هذا الفوز تعريف معنى "الانتماء" في السياق الفلسطيني: لم يعد الانتماء مجرّد ارتباطٍ بالأرض، بل أصبح أيضا انتماء للقيم الإنسانية التي تعبّر عنها فلسطين من خلال أبنائها في كل الميادين.

من هذه الزاوية، يمكن فهم تصريح دلياني على أنه محاولة لتأطير هذا الحدث ضمن رؤية أوسع لتيار الإصلاح الديمقراطي في حركة فتح، رؤية تسعى إلى إعادة الاعتبار لقيمة الإنسان الفلسطيني كمنتِج للمعرفة، وليس فقط كمناضل في الميدان السياسي. فالإصلاح الحقيقي لا يبدأ من المؤسسات فقط، بل من الثقافة، من الإيمان بأن كل طفل فلسطيني يحمل في داخله إمكانية أن يكون عالما، شاعرا، أو مفكرا يسهم في تشكيل صورة بلده في الخارج.

ومع أن الفوز بنوبل لا يغيّر الواقع الميداني الصعب، إلا أنه يقدّم صورة رمزية مضيئة يمكن البناء عليها في تعزيز الدبلوماسية الثقافية الفلسطينية. فحين يتحدث العالم عن فلسطين من خلال إنجاز علمي، فإن ذلك يفتح نوافذ جديدة للحوار والتفاهم، ويعيد توجيه الاهتمام الدولي من صورة الحرب إلى صورة الإبداع. وربما لهذا قال أحد المراقبين إن "فوز ياغي بنوبل لا يقلّ أهمية عن أي انتصار سياسي"، لأن العلم يُحدث أحيانا ما تعجز عنه السياسة.

إنه انتصار للعقل في زمن الخراب، وانتصار للأمل في وجه الإبادة، وانتصار لفلسطين التي لا تزال تُقاوم محاولات الطمس والإنكار بأسلوبها الأكثر تحضّرا وخلودا: المعرفة. فكل جائزة، وكل اكتشاف، وكل إنجاز فلسطيني في المنفى هو بمثابة عودة رمزية إلى الوطن، عودة تُثبت أن الاحتلال لا يستطيع أن يحتكر مستقبل الفلسطينيين أو أن يحدّد سقف أحلامهم.

من هنا، يصبح فوز الدكتور عمر ياغي أكثر من مجرد جائزة علمية، إنه بيانٌ إنساني صادر من قلب فلسطين إلى ضمير العالم، يؤكد أن هذه الأرض الصغيرة قادرة على إنجاب الكبار في كل الميادين. وكما قال دلياني في ختام تصريحه: "إن جائزة نوبل التي حصدها د. ياغي هي رسالة أمل من فلسطين إلى العالم بأن المعرفة مقاومة"، وهي رسالة تختصر فلسفة وطنٍ بأكمله آمن بأن الإنسان الفلسطيني لا يُقاس بما يملكه من أرض، بل بما يقدّمه للبشرية من ضوء.

تكتبها: الشاعرة الفلسطينيّة نهى عودة

قصاصات أسير مُحرّر

تُعرف الشاعرة الفلسطينية "نهى شحادة عودة" في المجتمع الأدبي العربي باسم "ياسمينة عكّا"، أبصرت النور في مُخيّمات اللاجئين في لبنان ذات يوم مُندسٍّ بين أعوام ثمانينيات القرن الماضي، وتعود أصولها إلى قرية شعب في قضاء عكّا بفلسطين.. هي ناشطة ومناضلة من أجل الحفاظ على الثقافة والذاكرة الفلسطينية وضمان توريثها لأجيال اللاجئين.. نشرت رواية واحدة وعددا من الدواوين الشعرية، وخصّت جريدة "الأيام نيوز" بمجموعة من القصاصات التي أودع فيها الأسرى المُحرّرون الفلسطينيون بعض ذكرياتهم في رحلة العذاب..

لأسير المُحرَّر "أسامة محمد علي أشقر" (15)

أحدّثكم الآن وأنا أشعر بمشاعر متضاربة ومتناقضة. أشعر بألم شديد، بحزن عميق، وبقشعريرة تسري في جسدي من منظرنا في "البوسطة" (سيارة تنقل الأسرى من سجن إلى آخر، أو من السجن إلى المحكمة، أو من السجن إلى المستشفى، وما إلى ذلك). هذه النّقليات تُعرف باسم "البوسطة"، وهي تدار من قبل مصلحة السجون.

توجد وحدة تُدعى "وحدة النحشون"، وهي المسؤولة عن نقل الأسرى بين السجون وبين المحاكم. هذه الوحدة الإجرامية ارتكبت آلاف الجرائم بحق الأسرى. يبدأ الأمر بتكبيل الأسير داخل الزنزانة، ثم يتم إخراجه إلى باب القسم، وهناك يُعصب بصره، وتُكبّل يداه خلف ظهره، وتُقيّد قدماه بالحديد. فيصبح الأسير معصوب العينين، مكبل اليدين والقدمين، غير قادر على الرؤية أو الحركة بحرية.

يقوم السجّانون بنقل الأسير بطريقة مذّلة ومهينة، فيُجبر على الانحناء أثناء السير. يحاولون بكل قوتهم إذلاله، أحيانًا يتعمّدون إسقاطه أرضًا، يستهزئون به، يشتمونه، ويشتمون عائلته طوال الطريق. وكلما كانت المسافة أطول، زادت الممارسات المهينة: شتائم، سخرية، وأحيانًا ضرب مباشر، وهو في تلك الوضعية المهينة، منحنٍ، رأسه إلى الأسفل، ويداه مكبلتان خلف ظهره.

يُقاد الأسير إلى ما يُسمّى بـ "غرفة الانتظار"، وهناك يبقى حتى يصل طاقم "وحدة النحشون". هذه الوحدة مدربة بشكل عال، ومسلحة بشكل جيد، وهي وحدة خاصة تابعة لإدارة سجون الاحتلال. يتعامل عناصرها بفظاظة شديدة، دون أيّ تعاطف، ودون أي إنسانية. لا يُسمحون للأسير بأن تطلب شيئًا، ولا حتى أن يتحدث.

يُخرجون الأسير من غرفة الانتظار الأولى إلى غرفة ثانية تحت إدارتهم، وقد يبقى فيها ساعتين، أو ثلاثًا، أو حتى خمس ساعات، والأسير في الوضع نفسه: جالس على ركبتيه، مكبل اليدين إلى الخلف، والقدمين بالحديد، معصوب العينين. خلال هذا الوقت، يُفتّش السجّانون الأسيرَ تفتيشًا دقيقًا في المرة الأولى، وعند خروجه مرة أخرى يُعاد التفتيش.. حتى لو مزّق منديلًا، ليلقيه في الزبالة، قد يعاقَب على ذلك، وقد يُضرب أو يُهان لأيّ تصرّف بسيط.

بعد ساعات من الانتظار والإذلال، يتم نقل الأسير إلى "البوسطة". والبوسطة، كما قلت، هي عبارة عن مكعب حديدي ضيق، لا يحتوي على أيّ مساحة للراحة. الكراسي حديدية تمامًا. في الشتاء تكون شديدة البرودة، ومعاناة الجلوس عليها قاسية جدًّا، خاصة بدون أيّ ملابس أو وسائل تدفئة. أما في الصيف، فالحرارة لا تُحتمل، الهواء خانق، والاختناق شديد. كثيرٌ من الأسرى أغمي عليهم داخل البوسطة بسبب طول الوقت وسوء الظروف.

تستمر هذه الرحلة لساعات طويلة، يمرّ خلالها الأسير على عدة سجون، وكل سجن ينتظر فيه ساعتين أو ثلاثًا داخل البوسطة نفسها. أحيانًا تستمر الرحلة 10 ساعات، وأحيانًا 12، وقد تصل إلى 18 ساعة. بصراحة، إنها رحلة موت حقيقي... البوسطة موت حقيقي.

عندما ينزل الأسير من "البوسطة"، يكون في استقباله السجّان أو أحد أفراد وحدة "النحشون" بطريقة سيئة. يمسكه من يديه المكبّلتين إلى الخلف، ويجبره على خفض رأسه إلى الأسفل. يبدأ بتفتيشه، رغم أنه لا تملك شيئًا، لكن هدفهم ليس الأمن، بل الإهانة. يقومون بتعريته وتفتيشه مجددًا، ثم يُدخلونه إلى الغرفة، ويعيدون تكبيله بطريقة شديدة وقاسية جدًّا جدا.

يكون الأسير قد قضى عشر أو اثنتي عشرة ساعة في "البوسطة"، وفي تلك اللحظة يكون الدم محصورًا في يديه، والأعصاب مشدودة إلى درجة أن أطرافه تصبح زرقاء بالكامل. القيود الحديدية لا تترك أيّ مجال للحركة، فتغرس في الجلد والعظم، وتترك أثرًا مؤلمًا جدًّا. وينتظر الأسير بعدها ساعة أو ساعتين، حسب مزاجهم، حتى يتم إدخاله إلى الغرفة أو إلى السجن أو إلى العيادة.

وقد يبقى الأسير في "البوسطة" يومًا أو يومين في هذا الوضع المهين والمذل، دون أيّ شروط إنسانية للحياة: لا طعام، لا شراب، ولا حتى استخدام الحمام. "البوسطة" هي المقصلة الحقيقية للأسرى.

بعد 7 أكتوبر، ارتفع منسوب العنف والوحشية. أصبحوا يضربون الأسرى ضربًا مبرحًا جدًّا، إلى درجة أن بعضهم أغمي عليه من شدة الضرب، وبعضهم تعرّض لتكسير أضلاعه أو أطرافه.

في شهر آذار/ مارس 2024، انتقلتُ من سجن "عوفر" إلى سجن "ريمون"، وكنا مجموعة من 25 أسيرًا، تعرّضنا جميعا إلى الضرب المُبرح، وبيننا مَن كُسرت أذرعهم أو ضلوعهم بسبب شدة العنف الذي مُورس عليهم أثناء النقل في "البوسطة".

رحلة "البوسطة" قد تستمر يومًا، يومين، أو ثلاثة، بحسب المسافة والمكان الذي يتم نقلك إليه. هي بحق رحلة موت وعذاب حقيقيين، ما زالت مستمرة حتى الآن في داخل سجون الاحتلال.